

روائع الأفق العربي  
(الأعمال الإبداعية)

طه حسين

دعاء الكروان

Looloo

[www.dvd4arab.com](http://www.dvd4arab.com)



اتج هذه القصة أن تبلغ من نفس شاعرنا  
العظيم خليل مطران موضع الرضا ، فأعدي  
إلى هذه القصيدة الرائعة فضلاً عنه أتقبله  
مغفوراً شكوراً . وأكره أن يؤثر به  
نفس من دون الذين يحبون الشعر الربيع  
بل أكره أن يحملوا التواضع الكاذب على  
إعطاء هذه المكرة التي إن صورت شيئاً  
فلانما تصور نفساً كريمة وقلباً عطوفاً :

دُعَاءُ هَذَا الْكَرْوَانِ الَّذِي

خَلَّدَتْهُ فِي مَسْجِدِ الدَّهْرِ

لَهُ صَدْقَى فِي الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ مِنْ

أَشْيَى مَتَاعِ الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ

لَكِنَّهُ مُشْجِرٌ يَرْجِعُهُ

لَمَّا جَرَى فِي ذَلِكَ الْقَفْرِ

إِذَا تَسَكَّنَ الْيَدَاءُ وَهْنًا فَا

يَنْبْضُ إِلَّا مُهْجُ الْقَفْرِ



والليل في اليه الحيق المدي  
يُطبقُ جَنبَهُ على وَزِيرٍ

والطائرُ المرتاعُ في جَوْهٍ  
يُنلِرُ بالأساة في دُعرٍ

يُرْنُ لِذَنانٍ مِهامٍ رَمَتْ  
حيثُ رَمَتْ بالشُعْلِ الحَمَرِ

أَسالَ أَدَمِي خَطْبُ مَطْلُولَةٍ  
مَقْشُولَةٍ في زَهْرَةِ العَمَرِ

جَنَى عَلَيْهَا وَاهِمٌ أَنَّهُ  
يَنَارُ لِلْمَعْرُوضِ وَالطَّاهِرِ

وَحَامَرَتْنِي حَسْرَةٌ غَامِرَتْ  
شُهودَ ذَاكَ المَصْرَعِ التَّكْبَرِ

أَلَيْسَ لِلْأَرْوَاحِ في بَشْهَافِ  
أَوَاصِرٌ مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِي

جَوْهَرُهَا قَرْدٌ وَإِحْصَامُهَا  
مُشْتَرِكٌ في النِّعَمِ وَالْقَصْرِ

حَادِثَةٌ في رَيْفٍ مَصْرِ جَرَتْ  
وَمِثْلُهَا في الرَيْفِ كَمْ يَجْرِي

قَصَّتْ عَلَيْنَا قِصَصًا شَالِقًا  
في كَلِمٍ أَنْتَى مِنَ القَطْرِ

مَسْرُودَةٌ مُردًّا على صَقْوَةٍ  
أَفْعَلُ في النَّفْسِ مِنَ الحَمَرِ

يَا لَعَنَ العَرَبُ الَّتِي كَاشَفَتْ  
طَهَ بِمَا صَانَتْ مِنَ السَّرِّ

مِنْ أَيْ رَوْضٍ يُجْتَنِي مِثْلُ مَا  
جَنَاهُ مِنْ أَزْهَارِكَ النُّصْرِ

مِنْ أَيْ عَمْرٍِ وَالْمَنَى دُرَّةً  
بُصَادُ مَا صَادَ مِنَ الدَّرِّ

مِنْ أَيْ تَبَرٍّ فِي غَوَالٍ الحِلْيِ  
بُصَاغُ مَا صَاغَ مِنَ التَّبَرِّ

آيَاتُ طَهَ كَزَكَتْ بِالْهَدَى  
فِيمَ اسْتَعَارَتْ فَتَنَ السَّحَرِ

أَحْدَثَتْ مَا جَامَتْ بِهِ طُرُقَةٌ  
بِدِيعَةٍ في أدبِ العَصْرِ

تَجَلَّتْ خِيَالُ الشَّعْرِ في صُورَةٍ  
أَغَارَتْ الشَّعْرَ مِنَ النَّمْرِ

لم يكن يقدر أنى سألناه قائمة باسمه حين أقبل إلى في ظلمة الليل  
بسمي كأنه الحية أو كأنه اللص ، ولكنه لم يكذب يبلغ باب الغرفة ويتبين  
شخصي مائلا في وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح  
حتى أخذه شيء من الذعر ، فراجع خطوات ثم قال في صوت أبيض  
جعل يأخذ صوته الطبيعي قليلا قليلا : ماذا ! ألا تزالين ساهرة إلى  
الآن ؟ أتعلمين متى أنت من الليل ؟ قلت : لقد جاوزت ثلثه وما كان  
يتبقى لي أن أنام قبل أن يتام سيدي ، فما يدريني لعله يحتاج إلى شيء .  
قال وقد عاد إلى ثباته وهدهده نفسه واسترد صوته شيئا من قبحته المألوفة  
ودعا بتم البغيضة : ما رأيت قبلك خادما مثلك تحسن العناية بسيدها  
وتسهر منتظرة مقدمه إلى آخر الليل . لقد كنت أحبك قائمة كما تعودت  
أرى من سبقك في خدمتي ، وكنت أقدر أنى سأجد في إيقاظك بعض  
الجهد ، فلست أدري ما بال نوم الخدم بثقل حتى كأنهم أموات .  
قلت : قد أرحت سيدي من هذا الجهد ، وانتظرت مقدمه كما تعودت  
منذ اصطفت خدمة المترفين الذين لا يحبون إتفاق الليل في دورهم ، فلبأمر  
سيدي بما يريد . قال وهو يضحك ضحكا سمجا وقد مد إلى يداي وددت  
لو استطعت قطعها ، ولكني تراجعت حتى لا تبغى : فإن سيدك بأمرك  
أن تتبعه .

ثم انحدر إلى غرفته ومضيت في نره .



لييك لييك أيها الطائر العزيز ! ما زلت ساهرة أرقب مقعدك وانتظر نداءك ، وما كان ينبغي لي أن أنام حتى أحس قربك ، وأسمع صوتك ، واستجيب لدعائك . ألم أتعود هذا منذ أكنه من عشرين عاماً !

لييك لييك أيها الطائر العزيز ! ما أحب صوتك إلى نفسي إذا جئ الليل ، وهذا الكون ، وثامت الحياة ، وانطلقت الأرواح في هذا السكون المظلم ، آمنة لا تخاف ، صامتة لا تسمع !

إن صوتك إذن لأشبه الأشياء بأن يكون صوتاً لروح من هذه الأرواح لبد كرتي روح هذه الأخت التي شهدت مصرعها معي في تلك الليلة المهيبة الرهيبة ، وفي ذلك القضاء العريض الذي لم يكن من سبيل لي أن يسمع الصوت فيه مهما برضع ، ولا أن يجيب المغيث فيه لمن استغاث .

لييك لييك أيها الطائر العزيز ! اذن مني إن كان من أخلاقك الدنو ، وأنس إلى إن كان من خصائصك الأتس إلى الناس ، واسمع مني وتحدث إلي ، وهلم تذكر تلك المأساة التي شهدناها معاً ، وعجزنا عن أن ندفعها أو نصرف شرها عن تلك النفس الزكية التي أزهقت ، وعن هذا الدم البريء الذي سفك .

قلم ترد حينئذ على أن بعثنا صيحات ترددت في ذلك القضاء العريض لكنها لم تبلغ أذناً ولم تصل إلى قلب ، وإنما صعدت إلى السماء على حين هوى ذلك الجسم الخليل الممزق في تلك الحفرة التي أعدت له إعداداً ، ثم هيل التراب وسويت الأرض ، وأنت تدعو ولا من يستجيب ، وأنا استغيث ولا من يغيث ، وامرأة متقدمة في السن قد انتحت ناحية وجلست تذرف دموعها في صمت عميق ، ورجل مضطرب في السن قد قام غير

بعيد يسوى الأرض ، ويصب عليها الماء ، ويردها كما كانت ، ثم يتحى قليلاً ويزيل عن جسمه وثيابه آثار الدم والتراب ، ثم يرتفع صوته آمراً أن هلكم فقد آن لنا أن نرتحل .

منذ ذلك الوقت تم العهد بينك وبين أيها الطائر العزيز على أن تذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل حتى تثار هذه الفتاة التي غودرت في هذا القضاء ، ثم تذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل بعد أن تطمر بالثر ، ليكون في ذكرنا إياها وفاة هذه النفس التي أزهقت ، ولهذا الدم الذي سفك ، ورضاً عن الانتقام وقد ألم بالآثم المجرم ورد الأمر إلى نصابه ، وأراح هذه النفس التي ما زالت تطلب الرى حتى تطمر بالثر من الذين اعتدوا عليها .

لييك لييك أيها الطائر العزيز ! إنا لنتق كلما انتصف الليل منذ أصوام وأصوام فتدبر بيننا هذا الحديث ، أفندعي أقص أطرافاً منه على الناس لعلهم أن يحملوا فيه عظة تعصم النفوس الزكية من أن تزهق ، والدماء البريئة من أن تراق ؟

لقد بعد صوت الكروان قليلاً قليلاً حتى انقطع ولم يلبقى منه شيء ، وعاد الليل إلى سكونه المادئ الثقيل ، وأطمأن من حول كل شيء ، فما أسمع إلا هذه الدقات المنتظمة تصدر عن الساعة غير بعيد ، وهذه الدقات المضطربة المختلفة تصدر عن هذا القلب الحزين . . . وأنا آخذ



نفسى بالملوء لألامم بينها وبين ما حولها فلا أوفق لبعض ذلك إلا فى مشقة وهناء . وأنا أنظر إلى هذه الأشياء حول فى الغرفة فأرى ثراء ويسراً ، وأرى ترفاً وكلفاً بالجمال والفن ، وأنا أمدّ صيى إلى المرأة أمامى وأبنيها فى أديمها الصافى الصقيل حيناً فتعود إلى بصورة إلا تكن رائعة بارعة ، فإنها لا تخلو من رواء ونفصرة وحسن تنسيق . وما لى أسأل عن صورة هذه المرأة الجمادة الهامدة التى لا تحس شيئاً ولا تشعر بشيء . ولا تعرب عن شيء . وإنى لأرى صورتى مرآت ومرآت فى غير مرآة من هذه المرايا الحساسة الشاعرة البليغة التى تحسن الإفصاح عما فى النفوس وهى العيون ! لقد رأيت صورتى اليوم فى غير عين من هذه العيون التى كانت ترمقنى مسرعة ، ثم تعود إلى فتطيل النظر إلى قليلاً ، ثم تعود إلى مرة أخرى فتثبت فى وجهى لا تكاد تنصرف عنه . وكنت كلما رأيت صورتى فى هذه العيون يحيط بها الإعجاب والرغبة والشهوات الآتمة لا أنكر ما أرى ، ولا أكره ما أجد من الشعور ، ولا أردّ نفسى عن هذا الغرور الذى يثيره فى المرأة إعجاب الناس بها ونها لكهم عليها .

ثم أنا أنهض من مجلسى ، وأمشى فى غرفى لحظة غير قصيرة . أذهب فيها وأجىء ، وأقف عند ما يملأ هذه الغرفة من أدوات الترف والنعمة ، فأطيل النظر إليه لا معجبة به ولا مكبرة له ، وإنما أسأل نفسى : أنا صاحبة هذا كله ؟ أنا المالكة لهذا كله ؟ أنا صاحبة هذه الصورة التى تردّها إلى المرأة التى كانت ترمقها العيون معجبة حين كنت أتناول الشاي فى بعض مشاوبه عصر اليوم ؟

ثم أنا أفكر غير طويل فإذا أنا أستطيع ، وقد تقدم الليل حتى كاد

يلغ ظننه ، أن أمدّ يدي إلى زرّ كهربائى قريب ، فلا أكاد أمسه حتى بطرق الباب ، ولا أكاد أرفع صوتى بالإذن حتى تدخل على خادم وضيفة ، حست الشكل ، جميلة الزى ، ساهرة مهما يتقدم الليل لأنى ما زلت ساهرة ، ولأنها لا تستطيع أن تأوى إلى مضجعتها حتى آذن لها بالنوم . ثم أنا أمضى إلى هذه النافذة ، فلا أكاد أفتحها حتى تمتلئ نفسى روعةً وجلالاً لهذه الأشجار النائمة ، وهذه الأزهار المتأرجة ، وهذه الأطيّار التى تحلم فى ثنابا النصوص . وكل هذا لى ملك خالص لا يشاركنى فيه أحد ، ولا يزاحمنى عليه أحد ، أستطيع أن أعث به إن شئت ، ومنى شئت ، وكيف شئت ، لا يسألنى أحد عما أفعل !

فإذا اجتمعت فى نفسى صور هذا النعيم كله أحسست راحة وأمناً وثقة ، ثم لا ألبث أن أحس شيئاً من الكبرياء الغريبة ، لأنى لا ألبث أن أرى صورتى منذ أكثر من عشرين عاماً حين كنت صبية بالسة يائسة ، قد شوه البؤس واليأس شكلها وألقيا على وجهها غشاء كثيباً من الدمامة والقيح . لا ألبث أن أجد هذا الحزن اللاذع العميق حين أذكر هذه المأساة التى كنت أتحدث بها منذ حين إلى هذا الطائر العزيز ، وإلى كان يتحدث بها منذ حين إلى هذا الطائر العزيز .

إنّ فى أحداث الحياة وخطوبها لعظات وعبراً ! إنى لأتحدث الآن إلى نفسى حديثاً ما كان يمكن ولا يتنظر أن تتحدث به إلى نفسها تلك الفتاة التى كان الناس يسمونها آمنة ، وإلى تسمى الآن سعاد لأنه اسم جميل يلائم المألوف من حسن الاختيار والتظرف فى الأسماء .

لقد كانت آمنة تلك فتاة بدوية . انحدرت بها وبأختها امرأة من



أهل البادية ، أو من أهل هذا الريف المصرى الذى يشبه البادية ، لأنه منبت فى أطراف الأرض الخصبة مما يلي الصحراء الغربية أو مما يلي هذه الهضبات التى يسميها أهل مصر الوسطى بالجبل الغربى .

كانت زهرة أم آمنه وأختها هنادى امرأة بدوية ريفية ، تقيم فى قرية من هذه القرى المعلقة بهذه الهضاب التى لا يستقر أهلها فيها إلا ربما يزبلهم عنها فوج من أفواج الأعراب الذين يقبلون من الصحراء ليتعلموا الاستقرار فى الأرض والحياة فى أطراف الريف ، ثم يدفعهم فوج آخر فإذا هم يعضون أمامهم مضيقاً بطيئاً ، يتقلون فى أناء ومهل من مكان إلى مكان ، وهم يتقدمون نحو الأرض المنخفضة دائماً حتى يبلغوا حدود البادية أو حدود هذا الريف المتبدى ، وإذا هم على شاطئ القناة التى يسمونها البحر ويرسمون أن يوسف هو الذى احتضرها فى الزمن القديم . فإذا أتبع لهم أن يعبروا البحر ، فقليل منهم يحفظ بيداوته ، وأكثرهم يقضى فى طبقات الزراع ويضيع فى عداد الفلاحين .

كانت زهرة أم هاتين العناتين تعيش مع زوجها الأعرابي وابنتها فى قرية من هذه القرى ، قد اتخذت اسمها فى أكبر الظن من بطن من بطون الأعراب أو قبيلة من قبائلهم ، فقد كانت تسمى « بنى وركان » وكان أهل القرية ومن حولها يميلون الألف قليلاً ويذهبون بها نحو الباء ، فما أسرع ما أصبح سبة وعاراً يعاب به أهل القرية ، وكيف لا وقد أصبح اسمها « بين الوركين » وما أسرع ما أصبح أهل القرية يستحبون من اسم قريتهم ويكرهون الانتساب إليها ، ولا سيما حين كانت تدفعهم حاجة البيع والشراء إلى أن يهبطوا المدن . فقد كان اسم قريتهم لا يذكر إلا

أضحك الناس وأجرى على أنسهم مزاحاً كثيراً قليلاً : « تحفظاً لنفس البدوى الذى لم يتعود دعابة القرويين وأهل الحضر .

كانت زهرة تعيش مع زوجها وابنتها عيشة متواضعة هادئة ، فيها رخاء معتدل ، وفيها عزة بهذه الأسرة الضخمة ذات العدد الكثير التى كانت أمنا تسب إليها . ولكن أباناً لم يكن صاحب حشمة ووقار وسيرة حسنة إنما كان زير نساء يحب الدعابة والمجون ، ولا يتحرج مما يتخرج منه الرجل المضحك . وكانت له فى القرية وفى القرى المجاورة خطوب كانت تخيف منه وتخيف عليه .

وكانت أمنا أشقى الناس بهذه الخطوب ، تتأذى بها فى ذات نفسها - فكم حرقها الفيرة حين كان زوجها يغيب عنها اليوم الكامل أو الليلة الكاملة - وتشفق منها على زوجها هذا الماجن ، فقد كانت تحبه على مجونه وفجوره ، وكانت تعلم أنه يهين نفسه عداوات خطيرة فى كل مكان بالحاحه فى المجون والفجور ، وتخاف منها على حياة ابنتها ومستقبلها وأمانها فى العيش الهنىء .

ولما لى ما هى فيه من غيرة وإشفاق وفرع ذات ليلة ، إذ جاءها البأ بأن زوجها قد صرع . ثم بسنين الأمر قليلاً قليلاً ، فإذا الرجل قد ذهب ضحية لشهوة من شهوات الآفة ، فليس له ثأر يطالب به ، وليس من سبيل إلى استعلاء السلطان على قاتليه ، وإنما هو العار كل العار قد ألم بهذه المرأة البائسة وابنتها العيسيتين ، وإذا الأسرة كلها تضيق بهؤلاء النساء ، تكثر مكاثرهن منها ، وتغيب عن الأرض ، وتزودهن بقليل من المال وكثير من الرحمة ، وتكرههن على عبور البحر والاندفاع فى أرض



الريف يلتصق بحياتها فيها بائسات شقيات ، ليس هن سند يعتمد عليه ، ولا ركن يأوئ إليه ، وإنما هي امرأة وحيدة لها حظ من جمال يطعم فيها الناس ويغري بها أصحاب المحبون ، وصيبتان بائستان لا تكادان تحسان شيئاً . والمحطوب تنتقل بين من قرية إلى قرية ، ومن ضيعة إلى ضيعة ، يلقي بعض الذين هنا ، ويلقي بعض الشدة هناك ، ولا تستقر بين الأرض في أى حال ، حتى ينشأ إلى هذه المدينة الواسعة ذات الأطراف البعيدة والسكان الكثيرين ، والتي تشقها الطريق الحديدية نصفين ، ويمضي فيها هذا الشيء المروع الخفيف الغريب الذي يبعث في الجو شرراً وناراً ، وصوتاً ضخماً ، وصغيراً عالياً نحيفاً ، والذي يسمونه القطار ، الذي يركبه الناس يستعينون به على أسفارهم ، كما يستعين أهل البادية والريف بالإبل حيناً ، وبالحمير حيناً آخر ، وبالأقلام في أكثر الأحيان .

هنالك في طرف من أطراف هذه المدينة ، استقرت هذه المرأة مع الصبيين . لجأت إلى شيخ البلدة أو إلى شيخ العزبة فأواها يوماً ، ثم ابنتى لها ولايتيها حجرة ضيقة حقيرة فذرة قد أقيمت من الطين ، فأسكنها فيها على أن تدفع أجراها عشرة قروش كلما بدا الهلال . ثم قال لها شيخ العزبة : ما أكثر العمل هنا ! فالتمسى حياتك وحياة ابنتيك في بيوت هؤلاء المترفين الذين لا يعملون في الزرع والحراث ، وإنما يعملون في خدمة الحكومة ، منهم من يخدم في معامل السكر ، ومنهم من يخدم في المركز ، ومنهم من يخدم في المحكمة الأهلية أو الشرعية ، ومنهم مهنتس الري ، ومنهم مهنتس الطرق ، ثم عند هؤلاء التجار الذين لا يتاجرون فيما تُخرج الأرض من الحب ، فهؤلاء فلاحون أو كالفلاحين ، وإنما يتاجرون ، في هذه الأمتعة

والعروض التي لا تأتي من الريف ولا تصنع في المدينة ، وإنما تأتي من مصر ، هناك حيث الناس لا ينطقون كما نطق ولا يعيشون كما نعيش . عند هؤلاء التجار الذين يبيعون الأقمشة والأحذية والأثاث ، يجلبونها من مصر ويبيعونها في المدينة وفي القرى ، ويربحون منها الأموال الضخمة ، ويعيشون في بيوتهم عيشة السادة والأمراء . لا يأكلون على الأرض وإنما يأكلون على الموائد . لا يأكلون الليرة ، وإنما يأكلون خبز الحنطة . لا يأكلون في أطباق النحاس . وإنما يأكلون في أطباق من الخزف . لا يسمحون لنساءهم أن يخرجن مثيلات ، وإنما يخرجن ملففات في هذه الثياب بتخذلها من الحرير ، وعلى وجوههن هذه البراقع الصفاف ، وعلى أنوفهن هذه القصبات من الذهب الخالص أو من القصبة المذهبة .

عند هؤلاء الموظفين ، وعند هؤلاء التجار تشتد الحاجة إلى الخدم ، والحياة في بيوتهم لينة فاعمة ، فالتمسى لنفسك ولا بتيك بعض العمل في بعض هذه البيوت . قال ذلك شيخ العزبة ، ثم سمى لها أشخاصاً ووصف لها بيوتاً ووعداها بالمعونة . وانقضت أيام قليلة ولكنها ثقيلة ، كانت أمنا تدور فيها بنفسها وبنا على البيوت تعرض نفسها ، وتعرضنا للخدمة ، كما تعرض الإماء على السادة . ولكن هذه الأيام لم تتصل ، وما أسرع ما استقرت كل واحدة منا في بيت تعمل فيه بالهزار ، وتنام فيه الليل ، ونلتقي آخر الأسبوع ، فنقضى ليلة سعيدة رضية في حجرتنا تلك القلعة الحقيمة ، قد حملت كل منا ما أتبع لها حمله من الطعام ، فنجتمع إلى طعامنا ، ونحدث عن أهلنا وقريتنا ، ثم عن سادتنا وسيداتنا ، حتى إذا تقدم الليل أغرقنا في نوم هادئ لذيذ ، فإذا كان الصباح تفرقنا إلى حيث نعمل في بيوت التجار والموظفين .



وبيني من اختلاف الزى ، وأختلس نظرات إليها ، ثم أختلس نظرات إلى المرأة ، فلا أكاد أحس بينها وبينى فرقا ولا اختلافاً ، لولا أنها كانت تتكلم لغة حلوة عذبة رقيقة هي لغة مصر ، وكنت أتكلم لغة فجة خشنة غليظة هي لغة أهل الريف من « بني وركان » . وكنت أقلد في نفسي لغة خديجة فأحسها وأجيدها ، ولكنى حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد ، فردعت عن ذلك ردعاً عنيفاً . ثم حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد حين كنت ألى أمى وأختى فكانتا تضحكان منى ضحكاً يخزني ويردني إلى لغة الريف .

وأنتفتحت مع خديجة عاماً وعاماً لم ألتق فيهما بأشك فيهما عناء ، وإنما عرفت فيهما الرفق والنعيم ، وتعلمت فيهما غير قليل مما يعرفه الأغنياء ، وبعد فيهما الأمد بعداً شديداً بيني وبين أمى التي كانت تعمل في بيت موظف من موظفي الدائرة السنية ، معتدل الحال متوسط العيش ، ولكنه أميل إلى حياة الريف ، وأحرص على تقاليد الفلاحين . وبعد فيهما الأمد بيني وبين أختى التي كانت تعمل في بيت مهندس الزى ، ذلك الشاب الرشيق الأنيق ذو الوجه الوسيم . ذلك الشاب الذي كان يعيش وحيداً في دار واسعة ، تحيط بها حديقة جميلة نظرة . ولا يعيش معه فيها إلا خادم رقيق ، يحرس الدار ويعنى بالحديقة ، وإلا أختى تنظف الدار وتعنى بمتاع الشاب ، وكان الطعام يأتيه غزيراً موفوراً من مطعم المدينة ، فيصيب منه القليل ، ويترك أكثره لخادميه .

وكنت أرى أختى تشب بسرعة ، وبستدير جسمها استدارة حسنة ، وتظهر عليها آثار النعمة وآيات من جمال . ولكنها ظلت كما أقبلت من

وكنت أحسن الثلاث حظاً وأيمن مطالعاً ، فقد قلرت لي أن أخدم في بيت مأمور المركز ، وكانت خدمتي غريبة أول الأمر ثقيلة على نفسي ، ولكنى لم ألبث أن أحييتها ووجدت فيها لذة ومتاعاً . كلفت أن أصحب صبيه من بنات المأمور كانت تقاربني في السن ، ولعلها كانت أكبر منى قليلاً .

كنت أرافقها في اللعب على ألا ألعب معها ، وأرافقها إلى الكتاب على ألا أنعلم معها ، وأرافقها حين يأتي المعلم ليلقى عليها الدرس قبل الغروب على ألا أتلقى الدرس معها .

كنت لها خادماً أخطئها من بعيد ، وأجيبها إلى ما تريد ، ولا أشاركها في شيء مما تعمل . ولكن « خديجة » كانت حلوة النفس ، رضية الخلق ، مشرقة الوجه دائماً ، مبسمة الثغر دائماً ، وديعة النفس ، رقيقة الخاشية ، فلم يطل ما كان بينها وبينى من البعد ، وإنما أشركتني في لعبها ، واختصتني بأحاديثها وآثرتني بأسرارها ، ولم تبخل عليّ حتى ببعض ما كانت تمنحها أمها من الحلوى ، أو من النقود لتشتري به الحلوى .

وما هي إلا أن تزول بيتا الكلفة وتصبح رفيقتين صديقتين . وسيدة البيت تذكر ذلك أول الأمر ، ولكنها تذعن له بعد حين ، وإذا أنا أختلف مع الصبية إلى الكتاب فأنعلم كما تتعلم ، وأتلقى مع الصبية درس المعلم فأستجيد كما تستجيد ، وإذا ثياب الصبية تخلع عليّ فيقرب ما بينها



وبفها المتبلى ، ريفية بدوية ، لا تقرأ ولا تكتب كما كنت أقرأ وأكتب .  
ولا تحسن من أمور الترف شيئاً كما كنت أحسن منها أشياء .

وفي ذات يوم التقينا آخر النهار في حجرتنا تلك الحظيرة القذرة ،  
وكنيت قد أخذت أكره هذا اللقاء ، وأضيق بهذه الحجرة ، وأود لو  
أعفيت من هذا الاختلاف إليها كل أسبوع ، ولو استطعت أن ألقى أختي  
وأختي من حين إلى حين حيث كانتا تعملان . ولكن أمنا كانت صارمة  
حازمة ملحة في الصرامة والحزم ، لا تغير من عادتها شيئاً ، فكنا نلتقي  
آخر الأسبوع دائماً ، وكاننا تضحكان وتتمنان بهذا اللقاء ، وكنيت  
أتكلف معهما الضحك وأتكلف معهما النعم .

فلما كان ذلك اليوم والتقينا مع المساء ، لم أر بشراً ولا إنساناً ، ولم أر  
بهجة ولا اغتباطاً ، وإنما أحست صمتاً عميقاً مريباً ، ورأيت وجهين  
كئيبين مظلمين ، ونجبل إلى أنى أرى دموعاً تضطرب في عيني أمنا  
ولا تستطيع أن تتحدث . وهمت أن أسأل عما أرى ، فأعرضت أختي عني  
إعراضاً ، وأشارت إلى أنى لا تسأل .

وقضينا وقتاً طويلاً ثقيلًا في هذا المص المص الذي لم أكن أفهمه  
ولا أتبين له مصلراً .

ثم انقطع هذا الصمت فجأة بحملة واحدة لم أسمع بعدها شيئاً ، ولم  
أصنع بعدها شيئاً حتى كان الصباح ، صلت هذه الحملة عن أمنا  
فوقعت في قلبي موقع الصاعقة ، ولقيتها أختي بوجوم قريب ، رفعت  
عينيها إلى السماء ، ثم مضت فيما كانت فيه من صمت وحزن وإعراض .

قالت أمنا : إذا كان الغد فسرحل عن المدينة المشنومة !

لقد هممت حين سمعت هذه الحملة أن أنكر ، وأن أمتنع ، وأن  
أناقش وأجادل ، ولكن أمنا قالت هذه الحملة بصوت حزين بعيد عظم ،  
فلم أستطع أن أقول شيئاً ولا أن أظهر شيئاً إلا الطاعة والإذعان .  
وذكرت ما ألم بها من البؤس طول حياتها مع ذلك الزوج الماجن  
الفاجر . ذكرت ما حرق فؤادها من الغيرة ، وما آذى نفسها من الذل ،  
وما روع قلبها من الخوف .

ثم ذكرت ذلك الخطب الذي ألم بها فهدتها هدأ حين جاءها التبا بأن  
زوجها قد صرح ، وبأنه قد صرع فيها لا يشرف به صريع .  
ثم ذكرت هذه الآلام التي لا حد لها ، والتي غمرتها كما يضر الماء  
الغريق ، حين أنكرتها الأسرة إنكاراً ، وحين أخرجتها من القرية ثم نقها  
مع ابنتها من الأرض .

ذكرت هذا فلم أستطع أن أنكر ولا أن أجادل ، ولم أزد على أن  
أظهرت الطاعة والإذعان . والله يعلم أى ليلة قضيت ساهرة حائرة نائرة ،  
لا أطمئن إلى شيء ولا أسكن إلى رأى . حتى إذا كان الصباح نهضت  
أمنا فأمرت أن نستعد للرحيل . قلت : أفلا نؤخذ سادتنا بهذا الرحيل ؟  
قالت في صوت هادئ حزين : إن كان يؤذيك فراقهم فأقمي فسرحل  
نحن . قلت بأكية : إن فراقهم ليؤذيني لكنى لن أستطيع أن أقيم ، وإنما  
هبطت معكما هذه الأرض ، وقد كنت أحب أن أرى خديجة قبل الرحيل .  
قالت : فإنك إن رأيتها لم تعودى إلينا ، أليس أبوها مأمور المراكز ؟  
أفمن تعلقت بك وكرهت فراقك يحل بينك وبين الرحيل ؟ قلت : إذن فسرحل .  
وما هي إلا ساعات حتى كانت أقدامنا قد تجاوزت بنا المدينة ،











الليل " وما ا سبعين من السماء " قال وقد هوت إلى الأرض كأنها السماء  
التيهم ودها مصطرب تمرف ، سرق له على كنها ذكرته لا أسطر شتا  
ولا أبقى شتا ...

ثم عادت الرعدة السريعة فهرت جسمها هراً ، ثم انهمرت دموعها  
انهاراً ، ثم حس صوتها وإذا هي مصطرب اصطراباً عيماً ، وسبع دماً  
عريراً ، بل أنشأ عصفه مصطربة ، وأنا أحتو إلى حاسها وأسمها إلى  
وأفعلها ، رأ أول ان أرد إليها غلوة والأمر وسكون النفس ما وسعي دنت ،  
حتى إذا وصل وقت عمر قصر صكر جسمها بعد اضطراب ، وانطقت أمها  
بعد احسان بعد دموعها سمر ، وأوب إلى ذراعي كأنها النقص  
قد استسلم أمه الرعوم ، وأشار رأسها إلى كني ، ودهت كذلك  
لحظة ، أدت إلى أنسى على ، لا أنها أحتت هذه السموة  
هذا ثاب ، بها نفسها ورجعها شام ، وسر حركت كانت حين بعد  
أن سكر دموعها ، كأنها أعجب ، حاسها ، وأما ما سر  
كانت تده إلى فلا تحده ولا دلمر به ، ثم سمعها تقول تده  
بعد لقد ، أحب ان أكون هذا المكان من أم لا من أم ، دحب  
الصبرة ، فإن لم تحلق لتللي أحلك ودحب مثل هذا العطف ،

بالأ من ليل مظلم عريض مصطرب فيه هذه الأصوات المشبه بحر  
التي تضي ، وسط عليه هذا السكون الخفيف ضلالاً لا حد له ، وسعد  
فيه من حس إلى حين صوت هذا الطائر العرير كأنه مهم ، تضي ، تنطق  
في بحر من الظلمات !

كل من هادئ مظلم من حولنا حتى نفس هذه الغناء التي

كانت تاتره منذ لحظة فقد طمأنت وسكت ، وانتهت إلى حال تشبه  
لوم ، وإن لأحد نفسي باعلوه وكرهها على لأطمئنان ، وألرم جسمي  
السكون في هذا الوضع الذي هو عليه بيني هذا الرأس للناس المخزون  
متربحاً إلى هذه الكنف الصغيرة الحنون .

وأكن الصبر ترفع رأسها وتنوي حاسة ، ثم تده ذراعها فظنوا بها  
على ، جسمي إليها ، ثم تقلى ، ثم تعود إلى أن فعل ما فعلت أو  
أحد مني ، قد جددت أو بدعت إلى مثل ما أددت إليه ، بل فعل  
بري فعلت ؟ مثل ما بريني في الآن من الخرج وخرج ، من الأس حتى  
من راحة الله ، من القوط حتى من روح الله الذي لا يسط منه إلا  
الكاهرون .

فلت يواد فعلت إذن " وما هذا لشر الذي أددت إليه " وما هذا  
يأس الذي تعرفين فيه " وما هذا هم الثقيل الذي صاب عينا حساً ولم  
بحر سطره ولا يتوج له معلماً " قال وهي تضي ، سب أدري أأحتت  
سكت ثم أكتعت إياه ، إلى لأعدني على سكت أن تحدثت إلي ، وإلى  
لأعرضك لكل ما أنا فيه إن كنتك الحديث .

فلت فإن صمتك لم يعني الآن شيئاً ، فقد عرفت أن هذا ثقيل  
لدي ، وإن حراً محضاً عرق دنت ولب أمنا ، وإن بأما مهدأ قد استأثر  
بمنه ستراً ، وما أن يمتعه عن سوار وسحت وأحتت حتى أعلم  
بهم هذا ، وإلى حمده إلى قبل أن أخرج من ذلك الموضع الناعم  
لدي ، إلى كتب اسمع به دون أن علم لاد أخرج منه برعاً ، تحدثني  
حدثك ، فن يدرى لعل فيه لي عطف ولك عزاء .

وارتفع الضحى من الغد فإذا ضوءه المتلطف يعمر فتاتين معتقتين قد  
أغرقتا في نوم عميق ، لا يوقظهما منه حرّ الشمس المحرقة ، ولا مس  
الأرض الغليظة ، ولا اضطراب اللواجن من حولها وهن يزدهن على ما يسر  
لهن من حب ، ويختصمن فيما يُصبّ لهن في الصحاف من ماء ، ويحفقن  
بأجنحتهن في الهواء مقبلات مديرات ، واقعات طائرات ، يتادين ويتاحبن  
ويتناعين ، قد ملأهن إشراق الصبح مرحاً ، فلأن الحو حياة ونشاطاً وحياً  
وكان هذا كله كان يدعوني دعاءً ملحاً من أعماق النوم الذي كنت  
مغرقة فيه ، ويدنيني قليلاً قليلاً من اليقظة ، وإذا أنا أتلتى الحياة دون  
أن أتمثل الحياة ، وأستقبل النشاط دون أن أشعر بالنشاط ، ثم أحس  
كأن شيئاً خفياً وثيقاً قد مسّ كفى مساً يسيراً فأنشيت ، ولا أكاد أفتح  
عيني وأرى بعض الحركة حتى أرى حمامة مذعورة قد ارتفعت عبر مسره  
في الارتفاع ، ولم تكذ تطير حتى وقعت في رشاقة وظرف غير بعيد ،  
فأستوى جالسةً وألقى نظرة إلى אחى وقد تاب إلى حديثنا كله مرة واحدة  
فلأ قلبي إشفافاً وحاً وحزناً . وتقع عيني عليها وقد استراح جسمها المتعب ،  
واستقر قلبها المضطرب ، وهذأت نفسها الطائرة ، ودادت الراحة عن وجهها  
ذلك النشاء المظلم الكئيب ، فلبعت نضرته حلوة مشرقة شائقة كأها نصره  
الزهر وقد تمتع لضوء الصبح وقطر الندى ، وإذا في هذا الوجه الهادئ  
النضر جمالاً للمين ، وحنة للعقل ، وسعة للقلب ، وإذا أنا أنظر إليه فلا  
أكاد أحول عيني عنه ، مستريحةً "معجبة" مكورة ، ولكي أسمع من ورائي

صوتاً خافتاً يملؤه الحنان والحزن ويقول كأنه يتحدث إلى : انظري . . .  
انظري . . . وأطيلي النظر ! أأنت تربيها حناء رائحة الحسن ؟

فألتفت وإذا أمّنا جالسة تنظر إلى الوجه الذي أنظر إليه ، وما أشك  
في أن معها كانت تستعرض خواطر كالتى تحذف على نفسي ، وإن أن  
قلبي كان يتأثر بمواطف كتلك التى كانت تملأ قلبي ، فأسألها : ما  
حلوسك ها في هذه الشمس المحرقة ؟ فتجيب : لقد كنت أملأ صبي  
بمطر كما الحميل . . . ثم تنهض موليةً في شيء من الإسراع وهي تعالّب  
شحتي يريد أن يصغر ، وتحرص هي على أن يظل دفيناً .

وأقيم أنا في مكاني ذاهلةً أو كالداهلة ، أنظر إلى אחى التى لم  
تستيقظ بعد ، وإلى أمى التى تسرع مولية تريد أن تهبط أسفل الدار ،  
وأفكر في هذه الفتاة اليائسة وفي هذه المرأة الدائسة ، وأسأل نفسي : أيهما  
أحق بالمعطف وأحدر بالرثاء ؟ وأسأل نفسي : أيهما أحق منى بالمعونة والنصر  
والتعزية والتسليّة ؟ فكنتاهما في حاجة إلى العون ، وكنتاهما في حاجة  
إلى العزاء . . . .

هذه الفتاة الربيّة لم تعرف نؤس اسمى قبل الآن ، وهي تستقبل  
النقاء لأن مطلباً قائماً ثقيلاً ملحاً ، لم تدعه ولم تسع إليه ، وإنما  
أكبرت عليه إكراهاً وأعريت به إعراء ، ثم دُفعت إليه دعماً ، وهي الآن  
عربى مشرفة على الموت ، تريد أن تقاوم ونجدهد الموج ما وسعها الجهاد  
لا تجد ما تعتمد عليه أو تتعلق به .

ولها لى ذلك إذ ساق القدر إليها من أختها الصغيرة "نميمة" تستطيع  
أن تمسك بها وتشتق فصلاً من أمل ، وحظاً من رجاء .



وهذه المرأة التي لم تسمع شجاعة عدو ولكنها قد فرصت على سبب  
حياة الشيوخ حرمان متعصن، وشرف عن كل ما في عيونه من سوء  
والعرض من كل ما في عيونه من سوء، وكفها عما يقع في ردها  
من موت، ونظر متعصن إلى عدو، ونظر متعصن إلى عدو، ونظر متعصن إلى عدو،  
ونظرة الألس، ونظرة الألس، ونظرة الألس، ونظرة الألس، ونظرة الألس،  
نحو، فلا سمعها، ولا سمعها، ولا سمعها، ولا سمعها، ولا سمعها،  
وإذا سمعها، وإذا سمعها، وإذا سمعها، وإذا سمعها، وإذا سمعها،  
ورداً على ما سمعها، ورداً على ما سمعها، ورداً على ما سمعها، ورداً على ما سمعها، ورداً على ما سمعها،  
أمرأ من بيت، وأمرأ من بيت، وأمرأ من بيت، وأمرأ من بيت، وأمرأ من بيت،  
تري إلا قسمة، ونظر أممها فلا تري إلا قسمة، ونظر أممها فلا تري إلا قسمة،  
فلا تجد عوباً ولا نصيراً.

نقد أخرجها لأسرة وجعلها لأهل ونسبها بحرية، وأصبح، وحده  
تعود أسير، وإذا هي تنكب في إحداها لأمر لا يسمع وقص،  
لم يكن مستطوره كسائر نائبة، وكنتاهما شقية، وكنتاهما شقية، وكنتاهما شقية،  
من الأخرى ما تحتاج إليه في هذا كله ولكن هذه، وكنتاهما شقية،  
وانكارة السخة قد باعدت بينهما، ولأم بحقيقة على أسير، وكنتاهما شقية،  
أمرأ، لا يتصل بهما حديث ولا تثبت عن إحداهما في عين الآخر،  
لما تتعلمان بالإشارة أو الجمجمة، وقد نعت أعيهما في أسرع لإصر  
إلى رأسهما، ثم ما أسرخ ما تدعو حاجة مريحة متحفة إحداهما إلى  
تولي مدبرة بأن عن صاحبها فلا يكون بينهما نظر ولا حدث

هل أستطيع أن أرد ما يسهما إلى طبيعة الصلة بين الأم المائنة

ولأنه عروبة؟ بل هل أستطيع أن نعيد لأمر بي شيء مما كان  
عنه قبل هذه نكارة من هذه المودة السنية التي لا تكف فيها ولا تصح  
ولا رياء، بل هل أستطيع قبل كل شيء أن أعلم أين نحن وإلى أين  
نصبي، وماذا تريد ما أمنا هذه التي تأمر ونهي في صحة حارمة صارمة  
وإعلاء مصعد لا يقبل حواراً ولا جدالاً، ذلك أحذر أن ذكر فيه،  
وآخرى أن أسمى إليه فلا تسمع أي إدد ولا تنقص ها، ولا سألها في  
نزه ومودة ورفق حتى أعلم علمها، ثم أنظر بعد ذلك فيما آتني، أو فيما  
يمكن أن تأتي من الأمر.

كل هذه المعاني تصطرب في نفسي، وعسى لا يكون عارق هذه  
الوجه هادئ لدى بدل هلوته على أن أحتي ما ركب في ذلك الأعنف  
من سوء، في كتب فيها مدح حب، لم سمعها صوته الشمس وحرها، ولم  
دعها من الأرض وعاطها، ولم فصل إليها اضطرب الموحى وما علا  
به الخو من نشاط وصرح وصياح.

فأهبط متشاقبه مترففة حتى أخط هذه لدار النفس أتت وقد كان  
أسير بصرها إليها، فقد عيرت غير بعيد من لدم وحدت، محبة  
نعت في الأرض بأصابعها عناء بدلت على شيء من سوء، كأنما  
تستريح من قسمة أو تنع خاطراً بعيداً، حتى إذا  
رأسها مدى وبأسها مدعه، ما هذه اللعبة التي نعتني بها  
لأنكم في الحب، هو مثل هذه اللعبة لا يستمر به الفرد  
بها لاعة واحدة...

فأب وقد رفعت إلى رأياً حراً، أرسى العبد باني، فلب  
فما عسى أن يفعل هذا الرب الذي يذهب فيه أصابعك وحوار،  
ثم أهيضها فلم تمتع عني، ومضيت بها إلى ناحية من العناء

لا يكفٍ فيها اضطراب الأصياح ، ونصرت إليها فإذا هي تنقاد إلى مستسلمة . وإذا حرسها لعميق وحاسها تقوى قد فاصا على وجهها الشاحب فألقيا عليه مثل وداعة الأبطال .

هات أحسست من نصبي قوة . وشعرت كأني أبا الأم ، رهرة ،  
وكأني هي المتاة ، آمنة ، فالتذت صوتها وطحنها وألقت عليها في  
غير تكلف هذه الأسئلة : ماذا تريد من "ومادا تصعين" وأين تذهبين ؟  
قالت وقد انحدرت دموعها : لا أصنع شيئا ، ولا أدرى أين أذهب  
نكما ، ولها أريد أن أنأى نكما عن هذه المدينة الموبوءة . قلت ولكن  
إلى أين ؟ قالت : سرى . قلت : ومتى نرى ؟ قالت : لا أدرى قلت  
فقد ينبغي أن ندرى ، فما يحس بثلاث من أسماء أن يهمن في الريف على  
وجوههم ، تلطمهم قرية وتنتفاهن قرية أخرى ، يؤويهن هذا العسدة وقد  
يردّهن ذلك . قالت : فماذا تشيرين ؟ قلت : أمّا إذكرهت المدينة وماعدت  
ببسا وبين تلك الدور التي كنا نحيا فيها حياة أمن وهديوه .

وهما أحدثها رعدة قوية وقالت في عصب وحدة : أي أن وائ  
هدوء ! إنك إذن لم تعلمي . قلت . بل علمت . قالت وقد احترأت  
الناس على أن تلقى إليك هذا الحديث ! ألم يكفها ما اقترفت من الإثم ،  
وما انعمت فيه من الدس حتى أردت أن تكوني لها شريكة ! قلت في  
رفق : دعها وما هي فيه الآن وعودي بنا إلى ما كنا فيه :

أما بدكرهت المدينة وباعدت بينا وبين ما كنا نبتغي به على  
الحياة من عمن . فإني أرى أن الشمس العمل في قرية من هذه القرى عند  
عني من هؤلاء الأعياء قالت لقد فكرت في هذا ، ولكني أرى

ليس إليه من ميسل ' فإن المرأة لا تستطيع أن تعيش ولا أن تأس .  
ولا أن تستقيم أمورها إذا لم يحمها أب أو أخ أو روح . قلت . فليس لنا  
أب ولا أخ ولا روح ' قالت . لي ل من يحميك . وقرينتي التي تبيعك عنها  
أخيراً ما وسع أحسب أن تعود إليها . ولئن بلغها ليعلم أن من حقها  
أن من العار أن تنسى الأسر نساءها وكرانها . فالمرأة عورة يجب  
أن تستر ، وحرمة يجب أن توعى ، وعرض يجب أن يمان .

فانت تريد بين اذن ان تعودى الى تلك الحياة المائنة النعمة  
كنت تحيها بين قوم لا يظرون البتة الا شرراً ، ولا يعصمون عليك  
لا كرهاً ، ولا يتحدثون عليك الا في سحرية ورحمة شر من السحرية !  
وبنعم ! فكل هذا أهون مما لقيت ، وكل هذا أهون مما يمكن ان تلقى  
في مصيبتك في هذه الحياة المائنة التي لم تخلق لها ولم تخلق لنا . ولقد انقطعت  
لأسباب التي كانت تدعو الى حقاء الأسرة وإعراض ذوي القرى  
محرر الأعداء ورثاء الأصدقاء . لقد انقطعت تلك الأسباب وبعد بها  
العهد . ولئن بلغنا قرناً ليدكرن انفس بعض أمراً حياً من نهر ، ثم  
لا يمتون ان يسردوا ان يسردوا ، ولا يلبث نحن ان نغمس في حباتنا لأولى  
بشيش بين أهلنا باتسات ، ولكن آمناات

فلک ویرندیں اُن صلح ہمدہ اشرافہ ساعیات علی اُمدہما شکل  
رسمہا ولف ، وبتضییف ہدا یوما وداک لستہ ، وقد اُستحب  
من کل ثمر ، فترکہ متاعا ودا جمیع لما عند من ارض  
وہب سترس ، علی مالکہ جہد ، وبن یمنی حیاء کما اُن ستر  
لما من نعمنا ای قرینہ و ہمدہ ما یمنی الاہل ولامہ و ہمدہ  
دعاه لنگرول۔







أجلس إلى طعمي مع ردي من حذاء بعد أن يتعرق سادتي من عائدتهم  
 من أحد شرفة على . أدفع يدي مع هذه الأيدي وأحرق في  
 هذه الأفواه . إنما أنا حاسة من هؤلاء النساء أنظر إليهن صفتاً من  
 وألمهي عن الخروع بهذا الحبر الرقيق المستدير الواسع أحطمه بين يدي  
 وأصيب منه قليلاً بين حين وحين . وأما نصيب من الطعام في فتح  
 وعنا الـ ، فقد حار حرق الحياء ييب ويس لرساء حاجتها إلى العناء . وأخ  
 وحة ماهرة كآب في أرض غير هذه الأرض ، وفي حبة غير هذه الحبة  
 ثم تفرغ الحصى ويتفرق النساء جماعات ، وهم نحن أن نتفرغ  
 ناحيه . ولكن لا نكد سمع من ذلك ما نريد حتى يترك نسوة ثلاث  
 يجلس حيث نجس ويبين إلا أن بأحذق معنا في الحديث . تقف  
 جدهم وتحدث مرة نحتصم على وجهها وأحر الشارب وأوائل الشبحوح  
 وحتف صوتها كما نحتف حركاتها نشاط فيه علوية مربية وبيل  
 صدهة صدهة . أنت كاللوم نسوة يستعين بالأنس والآذان  
 الأيدي والأفواه وعن الألسنة والخلق والأحواف

قالت هذا ثم التفت إلى أمنا فألقت عليها نظرة قوية تريد أن تشيرها  
 إلى الحديث وتكرهها على الجواب ، ولكن أمنا لم تنطق بحرف ولم تعرف  
 كيف تنقذ من أسيل السهم من القصد . ولما انعقد ساسها انهدأ .  
 صهر على وجهها اصصراط شديد ، ولم تثبت عيناها لعيني هذه المرأة  
 حرة العيوب معصنهم . وأصرفت برأسها إلى الأرض كأنها الطفل الصغير  
 يخع عليه الكار في السؤال عن بعض أمره فيمعه حياء من أن يجيب  
 هاتك عنت هذه المرأة إلى . وقالت هذه أمك صامئة لا تقول .  
 هذه أحدث وحة لا أمل في أن منهم ولا في أن تحب ، فتكسي أنت  
 من أرى في عبيث حرة وعلى وجهك شيئاً يشبه القحة ، وما أطر أن في  
 عبيث ملحقاً . . . فولي من أني ومن أين تغلس ؟ وما حطمكن ؟  
 ما عراضكن عن الطعام ؟ وما ليشارك للصمت ؟ قلت ولم أستطع أن أدفع  
 صحكك عن نفسي أمام هذا المحوم المفاخي العريب ، وأمام إغراق  
 من المرأتين الأخريين في الصحك ، وإغراق أما في الصمت ، وإغراق  
 في الوحوم : وأنت من تكوين ومن أين تغلسين ؟ وما أنت وسؤالك  
 إنيانا وإلحاحك علينا ؟

قالت مسرعة تتحدث إلى صاحبتها : ألم أقل لكما إنها قارحة ،  
 وليس في عينها ملح ، وإنما هي التي تستمع لي وترد علي ! ثم التفت  
 وقالت تحقيق . . . أسمعين ؟ تحقيق . . . أنا مكلفة أن أخضعك  
 ستعرفين من أنا ، وستعلمين أنني تعودت التحقيق مع النساء  
 حتى











وطلساتها وودعها . وهي حين رأيتها كانت تروو القرية لتحمل إلى أهلها  
بعض ما يحتاجون إليه من أتباء الغيب .

ولم يكذ بتصل الحديث ساو بين هؤلاء السوة حتى كدت نهيمة  
أسرعهم إلى موصنا ، وأحرصهم على أن يمتلكوا وتصل يينا وبين  
أصدقائها من الحن والعناريت ، لم يجد في ديت مشقة ولم تتكف له  
جهداً فهذه الفتاة الداهية التي لا تكدرى ولا سمع ولا تفهم ولا تحب  
حقيقة أن تلعت المحور الساحرة إلى نفسها . وقد فعلت .  
ما تلعت هذه العجوز في السؤال لتعرف ما هذه 'مناعة' وامتانة لا تحب ،  
وأمتنا أشد منها حرصاً على الصمت وبعرفاً به . والسؤال يحه إلى  
دوسها ، فأصطر إلى أن أرغم أن نأخى عنة قد أعيت الطبيب . وداء  
لا يعرفه ولا يجد له دواء ، وما أبسر ما يعصر السرة ويثر منها الودع  
على الأرض . ثم ما أسرع ما تعمل فيه بد قفينة حمماً ونهريفاً ، وصمماً  
ونتراً ، تلائم سه ونحالف ، وتتحد منه أشكلاً تقرأ فيها من أساء الماضي  
ولالحاضر والمستقبل أعجب العجب .

إلى لأراها الآن وقد مصت أعوام طوال منذ ذلك اليوم وهي تطر  
في الودع وتطيل النظر ، ثم تصهر على وجهها هذه الآيات التي تدل  
على أنها تحاول أن تفهم شيئاً فلا تستطيع . وإلى لأسمع صوتها المظم  
الذي كان هامساً دائماً مهما برنفع . وإلى لأحفظ جملها منذ ذلك اليوم  
ما نسيها ولن أنساها . وكيف أنساها وقد صدقها الزمان ؟ فطربت إلى  
ودعها . ثم أطالت النظر فيه ، ثم رعت عيناها إلى أخفى فأطالت النظر  
في وجهها ، ثم عادت إلى الودع فأنت عيناها فيه . ثم رعت رأسها وهي  
تقول للفتاة . إن أمرك يا انثى لعجيب ، إلى أراك بين اثنين : أحدهما

يخضع وسيروك ، والآخر ترك يسحبك . وإلى لأحاول أن أفهم فلا  
أستطيع . وإلى لك يا انثى أن تستشري مدام من حسن مدام من أولياء .  
وما أرى أن هذا عليك عسير ، هي هذه القرية نقرسها والتي تستطيع أن  
تلعبها في ساعة وبعض ساعة ما تحسن . فيها مدم مبدلاً فلار ، وإنه  
ليأتى بالأعاجيب ، وفيها دار فلاة وإن قرسها من حسن ليحدث بالأعاجيب  
أيضاً . ولم نكد نهيمة مطن باخمسة الأولى من حديثها حتى وثت أما كأنما  
دعوت إلى الوثوب دمعاً آلياً ، وانطلقت مسرعة هم رها إلا بعد وقت طويل .

## ٧

ها أنت ذا أيها الطائر العزيز تشترى من المظم الساكن بداءك  
السريع العبد كأنه امتعانة المستعبد . . . م حطك ؟ . . . أناؤك ؟  
وما الذي يغريك في ويساطك على ؟ لا أكاد أمهي في اليوم حتى  
تسرع إلى توقطى ، كأنما أحدث على نفسك أو أحد عيرك عيرك  
عهداً ألا تحلى بيني وبين النوم . وكأنما كفت نفسك أو كفت عيرك  
أن توقطى إذا تقدم الليل لتظهر من الأمر على ما كان خديقاً أن يفوتني  
إن استلمت للذة الأحلام . . . . . أنت بداءك سريعاً بعيداً أولاً  
نعمه قد أيقظني ، وما أرى أني سأعود إلى النوم دون أن أشهد شيئاً كالأدى  
شهادته أمس حين كانت أحتي مائلة داهلة كأد تضر أحرار السماء .  
في لأشعر بأى سأوها صنفه دة حيث أيتها أمس . وإلى لأشعر  
بعض إليها ، ولكن ندامك لا ينقطع ، إن لك شيئاً .

ماذا ! إن حو الليل المظلم الساكن انهيب ليس حالصاً لك هـ  
 أسبغة كما تعود أن يخلص من قتل . ماذا أسبغ الطير ؟ فوي لأسمع حتى  
 أحسنها . وأحسن كأنها متشرة قد خرجت من أوكارها حذرة مصفرة  
 في هذا ليل العجب . ماذا أسبغ الليل ؟ فوي لأسمع صاحبه فوراً  
 متصلاً بعيداً فيه إلحاح وترجيع كأنها تدعو من لا يسمعه .

د أسبغ الناس ؟ فوي لأحسن حركته - رج اندر - ووي لأسمعه  
 يد عون وبشادون . ووي لأشعر أنهم - يد عون - لا أنعمها

ماذا أسبغ من ؟ إن الحركة من حو لي أكثر وتحتشط  
 وتشد . ووي لأشعر بصرع قد استر في حو كما يستر لدمه - الكنف -  
 وهذا يداد أنها قد نثر العرير ما رن متصلاً سريعاً بعيداً . كأنه لم  
 توكل بيته في جدي . ووي وأكلت بركة الناس جميعاً بالأحباب جميعاً  
 اعطرا ! إن كل شيء قد استبسط من حو . ولكن يدادك ما زال  
 متصلاً سريعاً جداً . أريد أن تحدث إلى حووم ؟ ولكن أهنس بكل  
 ما أحسن حو من حركة وصحيح وصحيح واصطربات . فأسأل أختي  
 هذه مثالة اندادها . ماذا حدث ؟ ولكنها لا تعجب كأنها لم تسمع شيئاً  
 فبأحدثني حتى ويبط . وأمرها هراً عيباً وأنا أصبح بها ماذا أنا  
 تسمعين ؟ ألا تريين ؟ هالك تشبه وتحيي في شيء من الوحل ماذا  
 تريددين ؟ فأنزعتها مني وأعطت ماء الدار حيث اجتمع الناس  
 يتساءلون ويتجاوبون . وبشند يهنس لعل محتلط لا يكاد يقصبي

هاك أحد أمنا بين هؤلاء النساء ، شاهدة كالعائنة . ومنيفط  
 كالأمه ، تسمع ولا تقول . فإذا سألتها عما حدث أجاتني في صورة

هادئ حزين . دعوا أن رجلاً قد قُتل قريباً من القرية يقال له عبد الحليل ،  
 وقد جاء الصريخ إلى لعمدة فأيقظ رجاله وهو يستحثهم لالتماس القاتل .  
 وقصبتا بقية الليل ساهرات تسمع ما يصل إليها من لأحار التي إن  
 ابتدأت فلا نهاية لها ، وهي أحار القتل في المدين وأقوى وفي الحقول وعلى  
 الطريق العامة . وقد رعم من حدث من أهل الدار أن مقتل هذا الرجل  
 الذي صرع الليلة قد كان أمراً عتوماً .

لقد كان هذا الرجل شيخ الخمراء في القرية ، وكان قوياً شديداً  
 لأس عظيم السطوة . وقد حو القرية من اللصوص ولعنتدين ، وكانت له  
 في القوم آثار لم تشس ، مهم بطبونه بها . وقد اضطربت لقرية مند  
 ليل أن هذا الرجل أقبل وقد انقصى من الليل كثره على بيت من  
 البيوت . فحمل بطرق ماء طرماً عيباً ، وسدعو صاحبه بصوت كأنه  
 لرعد . أهنس أنها انحدت فإن اللصوص قد افتحموا عتبت بدر فدعوا  
 أهل البيت هذا الطريق وهذا انداء ، وأسرع الرجل في الدار . فإراعه  
 إلا شيخ الخمراء يرق ويرعد ويلج في الدبر ، ثم دخل سدار وحده  
 فخرس وعرفاتها يستحسن اللصوص ولكنه لم يجد أحداً . وقد سيقط  
 الناس واجتمعوا حوله وحو صاحب الدار ، وهو تقسم ويعتد في القسم  
 لقد رأى اللصوص يقتحمون الدار اقتحاماً .

مند تلك الليلة حدثت أهل القرية بأشجع حصره . ووي لأحسن  
 حو . ووي لأحسن أهل الدار . ووي لأحسن أهل الدار . ووي لأحسن  
 حو . ووي لأحسن أهل الدار . ووي لأحسن أهل الدار . ووي لأحسن  
 حو . ووي لأحسن أهل الدار . ووي لأحسن أهل الدار . ووي لأحسن



وقتلوا عبد الحليل. وها هو ذا العمدة يفرق رجاله في كل صوب. يأمرهم باقتحام هذه الدار، وبالبحث عن فلان ولقاص على فلان والوثوق من فلان. وهذه القرية هائجة ماثحة تسأل وتبحث، وتستغص وتزنازع وهذه جثة عبد الحليل طريحة غير بعيد من الحضر، قد دبرتها الحياة بعد احتصار طويل ثقيل، وقد قام عندها الرجال يحفظونها في مكانها حتى تأتي الشرطة من المدينة، وحتى يأتي المحققون. وقد أفلوا جميعاً بعد أن ارتفع الصبح، فأقاموا حول الحثة حيناً يألون ويشرح الطبيب. ثم أفلوا نحو القرية ونساء الدار مشرفات بظنون إليهم، وهم يسعون إلى بيت العمدة ليشربوا القهوة، ويمصوا في التحقيق، ويصبوا شيئاً من طعام.

وأنا مشرفة أنظر مع الناظرات. ولكن ماذا؟ إلى لأراجع مسرعة وقد اضطرب قلبي اضطراباً لا يكاد يستقر معه في صلبي، وقد تكلمت جهداً عصبياً لأحس صيحة كادت تسعث من فمي، وهذه أمي تحترق إلي، لا تعمل شيئاً ولكنها تهبط معي هباء الدار، ثم تهدئي بعض الشيء. ثم تقول لي كدهسة إياك أن تطهري أو أن تدعي هذا المكان مرة والله إن رث لم يصرف حتى يستصحبك ذلك أن كسب قد رأيت الأمور لماذا أكذب نفسي! لقد همت غير مرة أن أسمى إليه وأن أسأله عن حقيقة. وأن ألق عليه في أن يستصحبني ليردني إلى ذلك الحية سائمة ويحميني من هذا الظلام الذي كنت أدفع إليه على غير إرادة ولا رأي.

نعم! لقد همت بهذا كله، ولقد كنت أفعل، ولكني رأيت

أمي وما كانت تستصحب من مؤس قديم، ورأيت أختي وما كانت تستل من مؤس حديث، فأثرت شقاء هاتين الشقيقتين على ما كنت أحب لعمي من الحضر، ونفيت معهما أنظر ما تعمر لها الأيام

## ٨

آمنة. آمنة أقبل. هذا صوت أمنا ينهي لي، وقد انتحيت ناحية مع ربوة وحسرة على السطح، يحدث ألواناً من الحدث، وأختي حالمة غير بعيد قد شعت عاتقاً يملأ بها من هم وحزن، فإذا سمعت الصوت أسرع إلى أمي في ناحية لأخبرني من سطوح الدار، فإذا هي قائمة قد ظهر عليها نشاط وانحسب عن وجهها سحابة الحزن التي كانت تعشمة، وهي تنسم وتشير بيديها وتقول لي اطربي اطربي! هذه والله من دمي وركن. فأنظر فإني أعرأيت كأنه الشيطان وقد أراح قريباً من اندار حبلين عصمين وأحد يحط عن أحدهما بعض لأنفاس أمي منشرة منهقة تشر وتلمح في الإشارة وتقول. ثم تعرفي حالت دصر! ألم تعرفي هذين الحدين "عروت حالي، فما أكثر ما كب قلبه ثم صوبة وانصا، وما أكثر ما كب أحافه حين أنه وأكرهه منه هذا لعن الذي ستركن من بعض به، وهذه بهجة انباسة لي يمد بها حديثه، وهذه أصوات تصدع أذني به إنسانيت. حزم وعزم وشدة لا تقبل مراجعة ولا تسمع بجدال! نعم عروت حالي دصراً، وكنت أتى كثيراً ما كب قلبه نفسه.





سهم راحته هذه دلتنا ربيحنا من جملتهم  
 من صفة راحته دلتنا كذا له. إلى راحته والحبوب والحبوب  
 وقد اطمأنت الدار بالأعرابي ونفى من كرم مصيبه وثباته  
 ما أرحسه ، فلما مضت ساعة أو ساعتين والناس مجتمعون حول عمدتهم  
 يحاصرون فيما تعودوا أن يحاصروها من الحديث ، قال هذا من باب  
 عندك ودائع يا عمدة ، هاردد سببا ودثعا ، والله تأمر أن تؤدى  
 الأمانات إلى أهلها ، قال لعمدة ودائعك محفوظة لك ، مردودة  
 عليك يا شيخ العرب ، فما ذاك ؟ قال الأعرابي امرأة أميت عند  
 أريم ومعه فتاة ، سأدت لصيفة فأوثنها وأوتت سنن وأحست  
 ففاهر وسمت مشاهير ، ونحن أعرف الناس بحق الكرم ، قال  
 يا شيخ ، وهذه امرأة واستأجر ؟ قال الأعرابي ، هي حتى قال  
 يا شيخ ، على الرحب والسعة ، وما فعلت إلا ما كان يجب على .  
 يا شيخ هذه دور ، دام تمتع بلبوء العرب ، ولكن ودائعك يا شيخ  
 العرب من نرد عليك حتى تقيم بيانا حيا فتسمع منا وتسمع منك ،  
 فإن حديث الأعراب بلدنا ويرحسنا ، وقد عهدنا به مد رجل عما  
 سعيد وأصحابه ، وكانوا قد جيموا في طاهر القرية أشهر ، ثم ارتحلوا لا عن  
 قلى ولكن عن رغبة في الرحل . واتصل الحديث بين العمدة وأصحابه وبين  
 هذا الأعرابي حتى انقضت ساعات السمر .

أما أنا فلم أطمع النوم في هذا الليل الطويل الثقيل ، لأن أخنى  
 . نعم من هو الحوم ، ولم يفتح طائري العرير إلى أن يوقظني سدائه السريع  
 العبد ، ولم أسمع منه هذا السدء كأنه عرب أن ساءة مؤثرة فلم  
 حرج من نسيه . فاطنق في الحو الفصح يسه عدى من الذين لم  
 تفرقهم المعلوم والأحزان .

مدت إلى حتى كنية صيفة الصدر مكعبة مع دنت أن أحق ما أحد  
 من كنه وصفي الصدر . فأسأها بمقدم حالها وبأنا منجلات في  
 كبر من ، أسهر النصح . وجمعت أربس لها الرحيل وركوب الإبل  
 وحسار يرى ونظر إلى هذه الحقول لمسة بيننا وبين البحر ، ونظر  
 إلى ما تحت من ماء الذي يعص بيننا وبين بلادنا في العرب ، نظر  
 إليه مقلات عليه بعد أن نظرا إليه مديرات عنه ، ثم عبر هذا البحر  
 ونسى على هذا السهل الحميل الضر الذي تلتقي فيه أرض الصحراء  
 لمحنة وأرض الريف المخصصة ، ثم تصعد تصعيداً هيباً كأنما ترقى في  
 للروح إلى هذه الهضة الحميمة التي تقوم من ورائها فريتنا وادعة هادئة  
 كأنها نحتفى من كل طارق يأتيها من الشرق . أنا أربس لها هذا كله  
 بلساني ، وأتكلف لها مطهر المراحة له المعبطة به المقلة عليه في سرور  
 ولذة وشوق ، والله يعلم إن كنت لخرقة أشد الحزن مبهشة أشد الابتاس ،  
 تنارعي نسي إلى ما وراءنا نحو الشرق من هذه المدينة الكبيرة التي  
 ترامت أطرافها ، وامتدت على ضفة الليل هادئة وادعة ناعمة بما فيها

من صنفه ، و قد روي في نسخة علي بن ابي طالب  
 ما وقع في نسخة الشيخ في نسخة علي بن ابي طالب  
 انما روي في نسخة علي بن ابي طالب  
 كما ان روي في نسخة علي بن ابي طالب  
 احدهما في نسخة علي بن ابي طالب  
 روي في نسخة علي بن ابي طالب  
 واكثر حمل في نسخة علي بن ابي طالب  
 والارادة للسحر في نسخة علي بن ابي طالب  
 وما هم بالسحر ، كما هي في نسخة علي بن ابي طالب  
 هذا للدور شذوذه واسعة مبركة تحيط بها الخلداتى اللدنة ، ونادى الإلهوة  
 فيها والحياة من عرفها وحجراها واللهم من ما يحيط بها من الأشياء  
 والأرهار ، وإن هاتئ لقناة حيلة وبينة دقيقة هي التي أحسن إلى نهها  
 وأنحرف على تحديد العهد بها ، وماذا أصنع في تلك القرنة ، وأنى  
 حياة تريا لي فيها ، كلها شطط وخشونة ، وكلها جهل وعمدة ، وكلها  
 رجوع إلى ذلك الظور الأبله الذي حطت أحرار من قبيلا قليلا حتى  
 اسررت من أمي وأختي وأخذت أشعر بأني أحسن منهما فهما للحياة ،  
 وأصدق منهما حكما على الأشياء ، وأشد منهما صبرا على الخطوب ، وأمهر  
 منهما في التخلص من الشدائد والكوارث . أأستأذن منهما إلى الطمونة ،  
 وأجلد منهما أن أكون غرة عاقلة ؟ ومع ذلك فإني أنظر إليهما كما تنظر  
 الأم إلى صبيتين صبيعتين محتاجات إلى الحماية والحب وإلى العطف والعون !  
 كذلك كنت متناقضة أشد التناقض ، غتظفة أشد الاختلاف ،

أولس لأختي ما أشد له نص ، وبنى نصي كما ليس إله من  
 ميل ، ما حطرت لي حاضرا في أفق عبده لأنه كاد يشهر لي  
 محفلا سحبا ، كثر في حشر لي أن أنقص من حوى ردي بقاء  
 أسس ، وثأني من الله ، وثأني من وجهي بعد شفق مسودة من  
 لزارع والخسود ، عوى كما ساءت حنة في فقه ، حتى أبلغ إلى  
 الصبح أو مع الضحى ، وإذا أنا حيث أحب أن أكون .

لم أفد عند هذا الحاضر ، في ساء من يقضي من حين إلى حين  
 مرأسا سره أهدى ، منها أن يفتد أسهم من شوق لأن أكون  
 نكح مسودة ، لا سلا ، من ساء من عطف وده وكشف .

في الرصد " ما دا صبح وده وحيدة في ضوء النهار فصلا عن طيمة الليل  
 وذهب في دنيا من باتنتين تحملان وحدهما ثقل الأحداث والخطوب !  
 أغمي أدمي ما آلم ، وبنى عصب ولدنا ، حدث ، وذهب  
 إلى هذه الداء عاقلة فملك إن رهوه لمرق ، ساء ، وإن  
 وبها ليلت أسس ، وإن هذه التبع التي أهدت من  
 عيها في صحو وصحت خلقة أن يصرف عن كل تنكر ولا فـ  
 وعن كل عناية إلا بها أغنى الخلق بآمنة في ربي الرحيل ، وإن  
 التحدث عما سجد في القرنة من أسس ، وما مستقبل فبها من  
 واستمتاع بالحياة الراضية ، لا يخدم أحدا وقد يخدمنا ساس

ولكن أختي لا تسمع لي أو هي تسمع ولا تفهم عني هي مثل  
 لا تحب الرحيل ولا تعن إلى العرب ، وإنما تحن إلى هذا الشرق الذي  
 تركت قلبا فيه . هنالك في ذلك البيت الجميل الذي تحيط به هذه  
 الحديقة الواسعة ويقوم عليه ذلك العامل من أهل الريف ، ويعيش فيه  
 ذلك الشاب للرف الذي يسمونه الباشمهناس .





في التمسك حتى امتنعها عما أسفح من دموع ، ثم أعف وأعطى  
 في العف ، ثم رأى سائق حوبها كله على أمنا وحالك ، وأستوثق  
 لها من . . . . .  
 لعمري . . . . .  
 إذا سمع . . . . .  
 وأظهر . . . . .  
 لا يلبث أن يزول .

يا لاء . . . . .  
 وإعنا . . . . .  
 والقسم . . . . .  
 لا قبل . . . . .  
 القطر . . . . .  
 وهو . . . . .  
 السكون . . . . .  
 أخرجنا . . . . .  
 عمادا . . . . .  
 أحنى . . . . .  
 وسيحني . . . . .  
 تربدين . . . . .  
 تردده . . . . .  
 امرأتين أو من ساء ، وكل امرأة عندها بين رجلين أو بين رجال . قالت

أ . . . . .  
 وسبعينها ، وستمعصر أحدهم أثناء انقراض وسحب لأخر . . . . .  
 وهذا امرؤ يضطر . . . . .  
 وبات من يستفطون ويخرجون من . . . . .  
 وذهب إلى الحقل ، ونحوه . . . . .  
 وعيوب واحدة ووجه حائفة . . . . .  
 الإقدام ولا نستطيع امتاعاً على هذا الدعاء .

هذان الحملان قد هينا للرحيل وهذا حارسا قد قام حبسهما كأنه  
 النبلان ، وهذه أمنا ندعوا إلى الخروج ؟ . . . . .  
 من عرما من أهل الدار . ثم تمضي ساعة وساعة وإذا صوته الصبحي  
 يعمروا في هذا السهل الربيع الحميل الذي تمتد فيه عريين وشباب هذه  
 الحقل النضرة ترتاح إليها النفوس والأبصار ولكن هناك نفوساً لا ترتاح  
 وإعناهي مضطربة دائماً ، وأبصاراً لا تستقر وإعناهي رائحة دائماً إلى أين  
 يحضي بنا هذان الحملان !

إعنا يحضيان بنا إلى حيث الأمن والدعة ، وإلى حيث المرو والمعة ،  
 وإلى حيث تقضي حياتنا كما تعود أمثالنا من فتيات القرية أن يقصين  
 حياتهن هادئات فاعمات ، حتى إذا تقلعت من السن وأدركهن ميعه  
 الشباب ونضرتهم سعى إليهن الأزواج من شباب القرية أو من شباب القرى



المخاورة ، فأصحت كل واحدة منهن سيدة في البيت أو سيدة في الحيام ،  
 واستقبلت حياة فيها الخد والعمل والكد ، وفيها الأبناء والبنات وما يستعرون  
 من سجة وقرعة عين ، ومن شقاء وحزن وأمل وإشفاق . انظري يا ابنتي  
 الكبيرة إلى كل هذا النور الذي يهده الصبح علياً صلياً ولدي يعمرنا ،  
 والذي نعصى فيه كأننا نحوص لحة البحر . انظري إلى هذا النور الذي يعمرنا  
 ويضم السهل من حولنا ، وانظري إلى هذه الحفوف تسط عن يمين  
 وشمال لا تعد نهي ، وانظري إلى هؤلاء الرجال والنساء وإلى هؤلاء الفنان  
 والفنات وقد ملأهم النشاط ، وبعت فيهم الخد حياة لا حد لها ، فهم  
 يذهبون ويعبون وهم يعملون لا يعرفون كلالاً ولا ملأ . وأصواتهم ترتفع  
 لا بالشكوى ولا بالأكين وإنما ترتفع بهذا الغناء السادس الحلو الذي يبعث  
 في هذا الجو سمات سادحة حلوة ، ولدي بصور الأمل في عبر إسرار .  
 والرضا في غير استكانة ، والاطمئنان في غير حزن ، وحب العمل على  
 كل حال ، والثقة بالله على كل حال أيضاً .

انظري يا ابنتي واسمعي ، ثم سلي نفسك . أنت حزين فيما نرى أو فيما  
 نسمعي ما ينير خوفاً أو يبعث روعاً أو يدفع إلى بأس ؟ كل شيء آمن  
 وكل شيء يدعو إلى الأمن ، كل شيء هادي وكل شيء يدعو إلى  
 الهدوء . إن ظلمة الليل لمنكرة وإياها تحب الخوف وتبهره ، وإياها تنعت  
 الأشباح من مكائهم ، وإياها لتعري القلق بالعوس وتسلط لهم على  
 القلوب . . . لقد كنت يا ابنتي تثيرين في نفسي مثل ما كان يثور في  
 قلبك من الخوف حين كنت تتحدثين إلى " وظلمة الليل تعمرنا من كل  
 مكان . فأما الآن وقد انحلت هذه الظلمة وأصحت لا أمد عيني إلا

أنت . ولا مد عيني إلا سمعت ، عرفت ، صحتك صحت وموتك موت .  
 أنت ترين موتك من بيت الأشباح حمراء بني كاد به عيني موت  
 ومن ثم موتك . وبيد لأصحت من نفسي ومن بيادها لك  
 بعض شيء ، وبشرتك من إن حد ما . قدني وجهدي في أن تستحصرى  
 لأشباح حمراء . إياها لا تستطيع أن تبهر ولا تحرق على أن تراهي فصلاً  
 عن أن تمش أمدك أو أن تدرك . إن الأشباح لا تحب . ولا تستطيع  
 أن تظهر في وضح النهار ، إنما الأشباح والخوف والمرح وأمس بات  
 ليل . تطعن إليه ويضمن إليها ، تستغل به وتسط عليه هذه المقدم  
 ساكن الخيف ، فإذا انتم نصبح وشرق الصبح وتيفط الحياة  
 دنت كل هذه المروعات . وأجاست مع السلام . هم ينزلون أثر في  
 نفس ولا يصدق على قلب . انظري إلى هذا الصبح المشرق ، وأقصي  
 بعض إشرقه على نفسك . انظري إلى هذه الحدة التي تملؤها لنشاط  
 فأقصي منها على نفسك . أنت تحس حاجة إلى أن ترفع صوتك  
 بالعد . أنت بتعني هؤلاء الشباب عن يمين وشمال ؟ أنت انظري إلى أمنا  
 وحالنا ، إن أحدهم ليسعى هما مرحاً شديداً نشاط . وإيهما ليحدثان  
 في هدوء وأمس واستشار وشيء من الحزن كأنما يدكرب أيام صباهما  
 وشابهما ، وكأنما يودان لو رجعت همة الأيام إلى مثل هذه الس التي نحن  
 فيها . أنترين عليهما مصهر من مظاهر تربية أو آفة من آفات حكر ، أو دليلاً  
 من دلائل كيد ؟ كلا ، إيهما يبرحان ما حولهما فإذا هذا حياة وأمس  
 وأمل ، فلنكن مثلهما حياة وأمساً وأملاً .

أيسر حديثي هذا سيبه في قلب حتى أنه يبدد له روحاً وحياة  
 سيبهما . إن نفسي ، وإد هي تضمن بعض شيء لا سمح بحبه وبكها

لا تعرف في العوص . إنما هي كآفة ممتعة تعني نفسها ولكنها كآفة  
هادئة لا تثير روحاً ولا جوعاً ولا ثباتاً والصبر ينقص في مسفرة  
حيلة يجمعها إلى العوص هذا هو الذي يردده في راحة ويحتاجاً  
كلما نغم الأبرار ، وهذه الحمول خمسة عشر سنة في كل سنة  
العام في يرتفع في الجو ويخرج في الهواء فيكون في الجو  
لا يجر حربة إلا دون إلى مرة واحدة حتى لا يسمع بها ولا  
سمع "سمع" وكما قد نبت في الجو في كل سنة في كل سنة  
لنا أن سمع في راعات ، وبت أن أن نأكل في راعات في الليل  
الليل في راعات ، وبت أن نأكل في راعات في الليل في راعات  
لعلنا البحر في راعات في راعات في راعات في راعات في راعات  
الصحي حتى نكون قد اتينا إلى بني وركان .

ثم يخرج في الجو في راعات في راعات في راعات في راعات في راعات  
لدار أحمر في راعات في راعات في راعات في راعات في راعات  
وإن أي ساركن في راعات في راعات في راعات في راعات في راعات  
فيل ولم يراعه أما ولم يراعه في راعات في راعات في راعات في راعات  
ويها كما نعتي بأحد حيث من راعات في راعات في راعات في راعات  
من طعام كان حاله قد خرج من راعات في راعات في راعات في راعات  
كان يعرف في قرية محورة . فيعيب ما ساعه وساعه وساعه وساعه  
الليل ويسط ظلمة بظلاً . ونكا ستيش من استشاف السر ويكد  
نظمت إلى البقاء حتى يفر الصبح .

ولكن هذا حالنا قد أقس ، وهذا صوته الغلب الفاضع يرتفع بالنداء

في لرحيل . وها نحن أولاء يستحب سداً ، وهؤلاء أهل الله يكونون  
عنه هذا لفر حين يقيم الناس وهذا الاضطراب حين يسكن الناس ،  
ولكن حالنا إذا عزم أمضى . وما هي إلا ساعة أو نحو ساعة حتى كان  
خمساً في دوماً ب دوماً إلى الصبر في العمة وقد أسفل الليل أساره من  
حول إمدالا ، وقد نامت الخياة وحلت الحقول وسكن كل شيء . وانقطعت  
أصوات ، إلا هذه التي تأتي من بعيد بين حين وحين فتنبأ ، فإذا هي  
أصوات الكلاب تسبح في القرى البعيدة ، وإلا هذه الأصوات البسيرة  
عنده مخنفة المتصلة التي تحيط بنا وتخرج بسكون الليل امتراحاً  
تحدث شيئاً من الموسيقى الرائعة مروعة معاً ، وهي أصوات الحشرات  
وتصدع المسنة في الحقول وعلى شواطئ الأقبية .

وربما ومن إليها من حين إلى حين صوت بعيد يأتي من بين أو من  
شبهه فيكره ويرتفع له وهو نداء بعض الطير ولعله نداء النور ، وربما  
أربع صوت حال بعض هذه النور مخرجاً ترجيحاً حيلاً غنياً معاً ، ولكنه  
لا يسمع إلا قليلاً ثم يقطع . ويمضي حالنا في حديثه مع أمنا ، أو يعرف  
في نغزق أمنا في الصمت العميق ، وأنا وأختي نسمع لها كنه وتحدث  
في شيء من أهمس الخائف أو حل كأننا نمر من شيء نجاهه أو نعلم  
على شيء نحدثه . ومن يدرى ، بعضاً كما نتظر ظهور الأشياء الحمراء ،  
ونحن من أن نرى لنا ونشأ أمنا ، نذكرها على أن نتحدث ، ربما أو  
تحدث . وهذا هو الحال . وهذا هو الحال . وهذا هو الحال . وهذا هو الحال .  
في شيء من شيء . وهذا هو الحال . وهذا هو الحال . وهذا هو الحال . وهذا هو الحال .



من حين إلى حين ، ونعمونا تريد أن تهيم في هذا السكون ويحفظ هذه  
الظلمة وتود لو احتواها النوم ، ولكن أنشأ لها أن تهيم في سكون الليل وهي  
مضطربة وأنشأ لها أن تحتفظ بظلمة الليل وفي حباتها هذه لأبواب حبيطة  
الشاحنة أبواب التفكير في عدد واتذكر لأمس ، ولرؤفة فيما نحن فيه ،  
وأنشأ لها أن تنام وهذه سبات الليل قد أحدثت تظهر شيئاً فشيئاً وتدوم من  
قليلاً قليلاً ، وتنبئ فيما هذا لإشفاق العبيس الذي لا يستطيع أن يكون  
أما ولا يسمع أن يكون مخوفاً صريعاً ، وإنما هو ففق حتى ما كثر غيب من  
حواله كل شيء . " ونحن نريد أن نقاوم سبات الليل هذه فنعص  
أنصارنا حتى لا نراها وسد آذاننا حتى لا نسمع قراها ما  
والحملان يسميان في حد وبشاط لا يكاد بأحد منهما التنور ثم  
يرتفع صوت حبالا عيظاً محيماً ، كله شر وكله نكر وكله ندير  
هنا يجب أن نزل وما هي إلا أن يباح الحملان ولم نستمع  
واحدة ما أن تقول حرفاً أو أن نطق بكلمة أو أن تفكر في شيء . وإنما  
هو دخول عرب كفيف قد أضيق عينا وملاً نوماً كد أصفى طيب  
وملأت نعمونا ظلمة الليل وهذا حالنا فأنم كالنشاط ، وهو يأمرنا في  
غلظة وعنف أن نزل على يميني الحملان أمهها قيد أصعب

وها نحن أولاء نزل مضطربات ، ونسعى متعثرات وهذه أما  
نريد أن تسأل فيم إباحة الحملين ، وفيم النزول في غير منزل . وهذا أن  
هذه أريد أن أقول شيئاً ولكني لا أكاد أدر لسان في لبي ، ولا أكاد  
أستوعب ما كانت أمنا تقول ، إنما هي صيحة منكرة مروعة تنبعث في الجوف ،  
وحسم ثقيل متهلك سقط على الأرض ، وإذا أختي قد صرعت ويد

حاليا هو الذي صرعها لأنه أعمد حجرة في صدرها ونحن عاكفون على  
هذا الجسم الصريع يصطرب ويتحط ويتفجر من اسم في قوة كد يتفجر  
أداء من اليأس . ونحن عاكفون في دهول وسيله وبله ، ثم نسهم شيئاً ولم  
نقتر شيئاً ولم نتفكر شيئاً ، وإنما أنا على عزة أحداً واحتفظت هذه  
من بينا احتفظاً ، وحسبنا بصعرت ويتحط ودهيها يفجر الجسم  
يصطرب بعض الأحداث في قها ، ثم يبدأ الجسم مصطرب وسك  
السان المحرك . ونعف نجر لدم ، ونسعى نحو حولنا سكون  
لأنهم سكون الموت ونحن فيما نحن فيه من دهول وعمقه وبله ، ونحن  
فتم أمامنا كالتفصيل إلا أنه قد أحده ندهر كد أحداً

وهذا ندهر أيها الظاهر العرير نسعى من بعيد ، وهذه صوت  
ندو إلى قبالاً هبلاً ، وهذه عداوت تنشر في الخ كآه لود ، في قد  
أظهر لنا ما كنا نعبر . الموت دوا ، أن نره وعادات نبعث صرخت  
نسو نعتها بعضاً ، كأنما هي مهام من نور قد تلافت منعه في هذه  
القصيدة ففردت عن نصبي دهول ونحن عنها عصبنا ونسلك  
من هذا الله ، وحلبها الحرة منكورة شعة ، وانحزم آتد بعضاً ،  
والضحية صريحة مضربة بالدماء . . .

ول صوت لم يوقض وحده ، وهذا نصبي فها هي هذه صفة  
هذه هي هذه نساء أحداً ، وهذا نصبي فها هي هذه صوت  
نساء ، نساء ، لأنني سكت ، نكت ، لا  
أستوعب ما كانت أمنا تقول ، إنما هي صيحة منكرة مروعة تنبعث في الجوف ،  
وحسم ثقيل متهلك سقط على الأرض ، وإذا أختي قد صرعت ويد

الآئمة ! بك لن تستطيع أن تردى نفسك إلى البراءة والأمن .

نعم ! إن صوتك أيها الطائر لعربير قد أيقظي وأيقظ هذه الأم المجرمة التي سمكت دم ابنها بيد أحبها ، وأيقظ هذا المحرم منه إلى أن حربته يجب أن تحي وإلى أن آثار رثمه يجب أن تزيأ . واك لم يوقظ هادي وما كان يسعى له أن يوقظها لأن صوتك مهما يقو بهما بلح على يستطيع أن ينعذ من أسرار موت . إنك لترسل صيحات منصبة متلاحقة وإلى لأشط مثلك للعصيح . وإن صد سا نجلأ ، انصاء لعربص من حوت ، ولكهما لا يصرف هذه المرأة عن بكائها السحيق . ولكهما لا يصرفان هذا الرجل عما هو منغل عليه من إحصاء هذا الحاصل في حيرة التي لم يفارقنا آخر النهار إلا ليبيها .

لقد كنت المجرمة ومع كتاب أحله ، واستعدت هادي حطها من العدة . وماتت لأن شئت انما أعباها ولأنها لم تحسن أن تدفع عن نفسها غوايته .

إن صوتك ليست في حدة مستعينة وليس من به شدة ليست في انصاء عجيب ليس من بحس ، وإن هذا الرصد من حدة حربته وعجز ثوبه ثم سمكت إلى هذه المرأة صوب مبدع فيه اربع دماء حوت ودم " سر هادي " الرجل فبدأ يصار عليه ودد هذه " سم " في صوتك أن يوقظها بالذير . ثم يمثل أمامنا ويقول :

تعب ، والله أن هادي ذهب مع من ذهب من الأمر الوباء الذي ألم بها منذ أسابيع !

أما أنا فقد انقطع عني صوتك أيها الطائر العرير قليلا قليلا ، وانقطع عني صوت حالي ، ثم انقطعت عني الأشياء كلها أو انسلت من الأشياء كلها ، وإني لأراني أمرض في بيت خشن حقير .

## ١١

متى بلغت هذا البيت ؟ وكيف بلغت ؟ وأي طريق سلكت إليه ؟ وكم من يوم أو كم من أسبوع لبثت فيه ؟ وكم من يوم أو من أسبوع احتملت أهدال هذا المرض الذي أخذت عمراته نحلي عني خطوات في كل يوم ثم لا تلبث أن تتابع وتترككم ويركب بعصا بعصا وتأخذني من كل وجه فأجهل نفسي وأجهل من حولي كل شيء وكل إنسان . ولا أحس ولا أرى حين أعرف فيها وجع أخرج منها إلا هذه الصورة المسكرة المشعة التي لا أذكرها الآن ولم أذكرها قط إلا حوت في حسي رعدة عنيفة مؤلة وأخذ قضي اضطراب لا حد له ؟

سنة أعيانها على عسي ألف مرة ومرة ، وسألتها عني عسي ألف مرة ومرة فلم أصبر ولن أطفر لها نجوب . وقد أذكر صوتك أيها الطائر العرير وهو يحف ، أليس . ومعني فيه " ليه " آله صوت المودع سبع المسافر ، ثم صار يبعد ببعده شيء " فثيث " إذا أرت صوت الصوت أربع المحرم صوت حالي أرتم وهو يهدج ويهدج عني شيء فثيث " ليس ؟ بعض واشمئزز إنما أرى قطعة من اللين تسعى إلى سعيها هادئا أول الأمر ولكها



تسرع شيئاً فشيئاً ، وهذه الطلقات تتكاثف من حولي كأنها الأمواج العظام ، وهذه الأصوات تنقطع وتعد ، وأنا هذه بغمر في الموج وأدحل في الليل فلا أحس شيئاً ولا أرى شيئاً ولا أشعر بشيء ، يا له من يوم عمين طويل ! إن الأحلام قد أُلحَّت عليه ، فهي تروغني فيه تروبعاً متصلاً ليس إلى انقطاعه من صيل .

أكنت نائمة ؟ أكنت مستيقظة ؟ أكنت مريضة ؟ أكنت صحيحة ؟ أكنت عاقلة ؟ أكنت داهلة ؟ لا أدري ، إنما أعلم أنني كنت شاعرة شعوراً عامضاً ولكنه قوى منع كافي قد أقمت إلى ينبوع يتصحر أمدى من الأرض في مكان رطب . بعيد الآفاق لا يقوم فيه شيء ، ولا تقع العين فيه إلا على هذا اليسوع وعلى ظل مقيم عنده لا يربم ، وعلى ظلال أخرى نجىء كأنما أقبلت ترور هذا الظل . فهي تلم به حياءً وكأنما تناحيه وكأنه يسمع منها وكأنه يرد عليها ، وكأنني أسمع نحيي هذه الطللات ولكي لا أحقق ما أسمع . وكأنني أسمع نحيي هذه الطللات ولكي لا أتبين ما أسمع . . . وأنا حاملة هائلة لا أحس ولا أرى إلا هذا ينبوع الذي يتصحر في عبي انقطاع ، وهذا الظل الذي لا يتحول عنه وهذه الطللات التي تعد من حين وحين . يا له من ينبوع كريمة أود لو أحول عيني عنه . ولكن حرته تحتذب عيني إليه احتذاباً إنه ليسوع عزيز ، ولكنه لا يتصحر منه الماء ، وإنما يتصحر منه لبداء . يا له من ظل حزين كئيب شاحب مشرف في الشجوب أحول أن أعصر عيني وأن أعلق نفسي فلا أحس به محضراً ، ولكن شحونه يسهون نفسي ولكن حرته يمزق قلبي ولكن انحداره على هذا ينبوع يمتلئ لوعة وروعة

واشئاً ! يا لها من طلال تذهب وتجيء هادئة لا تكاد تشعر ولكن في حركاتها ما يملأ النفس حزناً وهلعاً ! ما لي لا أبت عيني في هذا الظل المقيم ، وما لي لا أبت عيني في هذه الطللات المضطربة التي تذهب وتجيء ؟ أنا نائمة أنا أم مستيقظة ؟ أعاقلة أنا أم داهلة ؟ أأست أتبين في هذا الظل المقيم ملامع أحتي فما لها إذن لا تكلمني . . . وما لها إذن لا تدعوني . . . وما لها إذن لا تناجيني ؟ لقد عرفتها محبة لي واثقة بي مطمئنة إلى ، فما لها لا تظهر لي شيئاً من هذا الحب ، ولا تبدي لي شيئاً من هذه الثقة ، ولا تبين لي عن شيء من هذا الاطمئنان ؟ إنما هي مكبنة على هذا ينبوع تنظر فيه كما تنظر الفتاة الحميلة في المرأة . ثم تبحث في هذا ينبوع ؟ أتراها تلتهم صورتها في هذا الدم المتدفق ؟ وما لها لا تكلمني ، أليست ترائي ؟ ما لها لا تجيئني ، أليست تسمعي ؟ ما لها لا ترق لي ولا تعطف علي ؟ أليست تسمع هذا النداء الذي ينبعث من فمي باسمها في صيحات قرية عذبة متلاحقة ؟ ! إني لأسمع هذه الصيحات ولكني لا أرى من أحتي أنها تسمعها ، وكأن هذه الصيحات تحيدها وترعجها ! فهذا ظلها يستخفي وتستخفي معه الطللات الأخرى ، ويستخفي معها ينبوع الأحمر ، وهؤلاء أشخاص آخرون يسرعون إلى ويدنون مني ويستجيبون لي ، فلا أكاد أنظر إليهم حتى أبتينهم ، ثم أحافهم . ثم أغضهم ، ثم أتنى بحصرهم بالصمت والهدوء . . . إنهم أهل الدار قد سمعوا صياحي فأقلوا يرقون بي ويسألوني عما أجده .

إنهم أهل الدار ، وما أشد بعصي لأهل الدار . إني لأرى بينهم أمي وإني لأكره أن أرى أمي . كلا ! لأكف عن هذا الصياح لعل

أهل الدار أن يصرفوا عني فيحبوني محضهم الكرية، إلى لأخذ نفسي بالصمت وأكره نفسي على الهدوء، وما هي إلا لحظات صامتة هادئة حتى يسدل ستار ويرفع ستار. وهذا اليسوع الأحمر يتعجر من الأرض قوياً غزيراً، وهذا ظل أختي ماكناً لا يريم، وهذه لعلال تذهب من حوله وتجيء. إن لي بهذه انطلاقات لعهداً، لقد رأيتها ولقد سمعت عبي حديناً، لقد حدثني عنها أختي في تلك الليلة التي قصيها مروعين حين أهل نخالنا يدهونا إلى سفره الآثم.

نعم إن لي بهذه انطلاقات الحمراء طلال مرتا وأمية ومرة نكت لي كدت نراي لـ صملاً فب أختي عرقاً وهلمأ ورهأً إن لي بهذه انطلاقات لعهداً وإنني لأعرفها وإنني لأفهم لآل لحاحها بالريزة على هذا لعل المقيم لقد أفقت نحسه وتواسيه ونشه ما وجدت من أه وجرد، وتسمع منه ما وجد من شقاء نفس. إن بحوى الطلال لعربة. لبتى منتصت أن أفهمها، لبتى انتظمت أن أستحيل صلاً فأفهم حدث انطلاقات ما مال أختي لا تاحي. أتراها لا نحس محصري. أم تراها لا تعرف كيف تتحدث إلى أو تفهم عني " أنتع لغة أسام إذا متور " لقد حدثونا أن سمعنا في حديثاً يشوه إلى لأحياء ففهمهم عبي لأحباء.

إن لأعرف هذه لعلال لقد كدت في صلاتي حين كنت رنم لأختي في بعض نصري أن لأشجع نكت من . . . وأكره صوته لهر ولا نستطيع أن نظهر فيه . ولعلال مسحة في الخور لا يصرف عني مطلع النهار ولا يهدمها عني مقدم الليل . إن لعلال لا تهرب نوراً ولا تألف طعمة، ولعلها لا تعرف نوراً ولا حسنة وإن نحس يعثينا

صوت لهار فلا نرى انطلاقات التي تحيده . وتصحب من حوله وتري كل ما تأتي وتسمع كل ما تقول ولعلها ترقى لنا . وعنها تسحر منا . ولعلها لا تفهم عما شئت كما أننا لا نفهم عما شئت . يا لنهول إن تدفن ليسوع ليشد . وإن الدم لينثر من حوله انشراً . وإن الحمرة لتصع كل شيء من حولى . وإن هذه انطلاقات لندو منى كآنها قد عرفتني وكآنها يريد أن تنسلي يا نهول، يا لروع ليدو منى، وإن الصباح يستحجر من فمي فبلاً الخو من حوى كما يصحح الدم من ليسوع فيصع الأرض خمرته . وإن لعل الدار ليقبض على . منهم الخرع . ومنهم المصم . وهم يرقون في ويعظمون على . . !

وهذه أرى . يا نهول . ما أسمع هذا الوجه وما أقبح هذه الصورة وما أشد بعصي لهذا المحصر ! إنها لندو منى وإن الدم ليحمد في عروفي لمقدمها . إنها تصع على رأسي حرقه ملبة وإنني لأجد لرد الماء شبتاً من الرحة . ولكن ليصرف عني هذا الوجه فبني أكره أن أراه . لرد عني هذه المرأة فبني لأحشى أن تقتلي وكيف أحلص منها وكيف آمن محصرها إلا إذا آويت إلى الصمت ولحأت إلى الهدوء ؟ إنه لعداء أليم هذه الحياة بين اليسوع الأحمر وانطلاقات العطيفة به إن آثرت الهدوء . وبين أهل اسار وهذه المرأة العيصية إن آثرت الصباح . أليس لي سبل إلى راحة من هذا عداء ؟ ما أكثر ما طلبت ونححت في طلبها . وما أكثر ما قرب منى وامشعت عني . وما أكثر ما جئت إلى ألى أخرى في إثر شيء أكناه أشد التقي وأحرص عليه أعظم الخرص وأحد في طلبه كل حد . حتى إذا بلغت أو كدت أبلعه كدت منه وثبة فوذا المسافة بيني



وبينه واسعة وإذا الأمد بينه وبين بعيد ، وإذا أن معدية أشد العذاب  
بالاضطراب لمع المصبي بين وحوه أهل الدار التي أكرهها ، وهذه الضلال  
التي يؤذني منظرها ويثير في نفسي ألماً لا آخر له . . .

ولكني أستفسر انهار ذات يوم هذبة النفس مستريحة الجسم .  
قد ألع الضعف على في أكاد أتحدث على أني أحد في هذا الضعف  
نفسه دعة وأما فأستعده وأستلده وأستسلم له استسلاماً ، وأحد في نفسي  
دهشاً ليداً حلاً لأن أفقد شيئاً كنت أخاف أن أحده ، أفقده افتقاد  
السعيد بالحاجة من شر يحشاء . فقد يحيل إلى أن قد بعد العهد بيني  
وبين الضلال واليسوع وحوه أهل الدار ، وأن قد قصيت وقياً غير  
قصير لم أر حمرة ليسوع ولم أشهد اضطراب الضلال ولم يرفع صوتي  
بالصباح ولم يسرع إلى أهل الدار ثم لا أكاد أتمثل هذا كله حتى  
أحتج ما استطعت في أن أدود هذه الحواطر عن نفسي بحافة أن يطول  
تفكيري فيها فيكون ذلك استحصراً لما أتمثله من أهول . ودعاءً لما أحد  
من السعادة في الإفلات منه . ورفعاً يستار عن اليسوع الذي منه ربح اندم  
والذي تغلب به الضلال وأنا أدود هذه الحواطر عن نفسي . وأستسلم  
هذا للضعف الذي أحده ، وأود لو نلت كما أن هامة حاملة لا أقدر  
على شيء حتى على التكبر . ولكن هذه هي أي تدومني من وجهي الكتيب  
شيء من آتت ارضي ، وهي تقول لي في هذا الضعف الذي يحيل إلى  
أي لم أسمع من مدد من بعيد بعد كنت بينه كنها يا آتته فأب برته .  
وما أرى إلا أنك ستسرع من نحو اشقاء لينب نقص عني . وسبب  
تدني مني . ولينب لم تتحدث إلى أفقد اقشعر انفسها بدني آتته ،  
واسلرت نفسي كنها . وأحدث عشاقه عرسته نفقني عن عيني . وأحدث

أشياء تضرب من حوى اضطراراً وآداني هذا كله أشد الإبداء مني  
كنت أصبح لولا أن حسنت صيحتي و حالي ولكن لم أستطع أن  
أستبد بدني وأن أسمعها عن أن ترتفعاً إلى عيني لترى عيني مظهر هذه  
أساء لرافضة ، وضمت الأم الدنسة في أنفب فوكت ما كنه . ووجدت  
في انصرافها عن سروراً وراحة ورضاً .

ولا بد مما ليس منه بد ، فم يكن سبيل إلى أن تمتع أني عن عبادتي  
وعادية في ، ولم يكن سبيل إلى أن أرفض لقاءه وأبصر من محضرها ،  
وم يكن بد من أن تنصرت إلى وأنظر إليها ومن أن تتحدث إلى وأسمع منها  
وأزد عن رجوع حديث . ولم يكن ذلك دون أن ينير في نفسي من الموحدة  
ويعتد . كك بردي أحبباً إلى بعض ما كنت فيه ، ولم يكن ذلك دون  
أن ينير في نفسي هذه المرأة التي لا مأ إلى آلام وشقاء في شقاء فترسل  
عني يا حسناً وتهدتها حباً آخر . وربما أثار في نفسي عصباً تحنهد  
في حسنة في سمع . وأنا أدود في البرء وأستبد من لقوة وأستبد النشاط  
قلبي فيها ، وآتي بعض الحردت البسرة فأجلس وقد كنت لا أستطيع  
الانتقام . ثم ثوب الحياة في في قوة كأنما كان بينها وبين مد ، فلما  
أرغب أحدث تعمري من كل وجه ، وإذا أن أنهض وأسعى . وإذا  
أن أستبد حصاً من آتته غير قيس وأحد رعة في كل شيء ، ولا في الحديث

وأي تدور حوى وتتطف في معنو في العناية في ، وود لو نتجده إلى  
عيني سبيلاً . ونتمو جهيداً مشرة للرؤاء تريد بها أن تفصل أسباب الحديث  
بينه وبين . ونكها لا تفصل مما يريد إلى شيء ، وقد أني بين نفسها  
وتفسي سور صفتق وهما لا تثقبان ومع ذلك تدور خاطراً من الحواطر

كان يتردد في معنى تردداً لا يكاد ينقطع وكنت أدفعه دوماً متصلاً  
 لأنني كنت أحد في اضطرب نفسي به أما فيه حرف والرعب وفيه بعض  
 والحمد لله فقد كنت أسأل نفسي وأريد أن أسأل أي أو أن أسأل بعض  
 من حولي عن حاله ذلك الشيطان الآثم المريد أين هو وأين ستقرت به  
 ائدار؟ فما أذكر أن صوته سبعة تمثلت لي فيها كان يمثل لي من  
 لصور أنه لدة ، وما أذكر أن سمعت له دكراً أو عرفت من أمره  
 حراً منذ أجد أن سعى إن ويدت في أعصابي . وما أذكر أن أحداً من  
 أهل الدار قد أثار إليه أو ألم يحدث به منذ أحدث أحاطت أهل  
 الدار وأشرك معهم في بعض شؤون الحياة . وكنت مع ذلك أر  
 أعرف من أمره بعض شيء . أو أكره أن أعرف من أمره بعض شيء .  
 أحي هو أم ميت ؟ قلت حريزاً أم أحده لسطار " أمقيم هو في غربة أم  
 ذهب في الأرض يلتمس مأواه بعد إقامته وراء هضبة من هذه الهضاب ؟  
 ما أكثر ما تردت في معنى هذه الأسئلة وما أكثر ما حزن بها  
 صدري وما أكثر ما هم لسان أن ينظر بها ، ولكي كنت أحسها في  
 صميري حساً حوفاً منها ومعضاً هذا الرجل الأثيم عن أي م أستطيع  
 ذات صباح أن أملك من أمري ما نعدت أن أسكه عالت أي وقد  
 حبوت إليها ، مائتاً وأنا أكاد ألقى وجهي عنها أين هو ؟ وما أسرع  
 ما فهمت غنى ، وما أسرع ما أحاسني وهي تشير لي بالخصم لقد  
 ذهب إلى الواحات فيمن ذهب . قالت ذلك وأهملت دموعها غريزة  
 سحابة ، ولكن كاءها لم يدع كذاً وحرباً لم يثر حرفي فقد كان بين  
 نفسي وبينني سور صغيق . ثم ذهب إلى الواحات فيمن ذهب . . .

علم يأخذه السلطان إذن ولم يهرب ملتصقاً مأواه وراء هضبة من هذه  
 الهضاب ، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب من أهل القرية ومن  
 أهل القرى المجاورة يحملون إلى أهلها ثمرات الربف ويحملون إلى أهل  
 الربف ثمرات الواحات . لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وكنت  
 نفسه هادئة ، وكان ضميره مطمئناً ، وكان قد نسي إثمه سيئاً ، وكان  
 قد انحل عنه هذا الدهول الذي غشبه بعد أن سوى الأرض على صحبته .  
 ولم تمثل له هذه الصور المروعة التي تمثلت لي ، ولم تهكك هذه  
 الحصى التي أهلكني ، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب يسبح  
 ويشترى ، وينحدث مع رفاقه إذا تحدثوا . ويهجو مع رفاقه إذا طوا ،  
 كأنه م يأت شيئاً ولم يقرب إنما ولم يسمت دم من أخته بيده  
 ذهب إلى الواحات فيمن ذهب ، وسيعود من الواحات فيمن يعود ،  
 يحمل وجهه السعير ونفسه الخمرية وضميره الآثم . ويحمل مع هذا كله  
 تحارة قد ترصيه وقد ترتضي أهل هذه الدار وسبقونه معتمدين بشهته ،  
 وسبقاهم سعيلاً بالعودة إليهم لا بحس إنما ولا دماً . وسيرتفع صباح  
 الفرج مقدمه في هذه الدار ، وسيرتفع صباح الفرج في القرية كلها  
 لتقديم العائدين معه من أهل القرية ، سيفضي الناس هنا يوماً كتبها  
 أعيد بمنزلة السرور والخير . ثم أنت أنت لأحت شعسه المائتة فلن  
 يدكر في هذه الدار أحد إلا هذه المرأة التي لا تسع أن تترك الأسر إليها  
 وبين نفسها . ولا هذه الفتاة التي لا تترك بيتك حتى يترعى لها  
 اليسوع الأحمر والصلال المطيغ به في ذلك القصر العريض فتشوق من أحيون  
 ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وسيعود من الواحات فيمن يعود . . .

حرام على أن أراه . وحرام على أن أشهد ما سيثير مقدمه من القرح  
والابتنهاج . إلى العاحرة عن لقائه . وإلى الحقيقة إن لقبته أن أفصح من  
أمره ومن أمرنا ما يريد أن يكون سرّاً أبيت هادي قد ذهبت مع من  
ذهب من أهل المدينة بذلك الوباء ؟ !

وأشرقت الشمس ذات يوم على أهل الدار وارفع الصبح ، واعتقد  
أهل الدار آمنة فلم يحسوها ، ولو أنهم انتقلوها في القرية كلها لما وجدوها  
فقد كانت آمنة في بعض الطريق قد عبرت البحر مصونة نحو الشرق .

## ١٢

وإني لأراها في طريقها نحو الشرق مبتلى قلبي رحمة لها وإعحاشاً بها  
وحولاً عليها . وأي قلب لا يرحم فتاة عمة لم تكذب تتجاوز من الصبا وقد  
قدّمت بها الأحداث في لحة الحياة الممتنة بالخطوب والأهوال ، وهي  
وحيدة ليس لها عون ، قد صغرت يدها من كل شيء ، وفرغ قلبها  
إلا من هذا الحزن اللاذع الذي يفعمه إعداماً ، وصجرت نفسها حتى عن  
الأمّل ، فهي قد فرت من بيت أسرتها فراراً ، لا تريد شيئاً إلا أن  
تخلص من هذه البيئة التي لم تكن تستطيع فيها مقاماً ، وتفلت من هذا  
الشیطان المربد الذي كانت تؤشك أن تلقاه إن أقامت أياماً .

وأي قلب لا يعجب هذه الفتاة العمة التي لم تكذب تتجاوز الصبا ،  
والتي فرت من أهلها فهي تسمى لا تلتوي على شيء ، نجيلة هزيلة ،  
ماتمة كثيفة لا تدرى أين ينهيها المسير . ولا تعرف كيف بناح لها

الموت ، من لا تفكر في شيء من هذا ، وإنما تنصني أممها مسرعة في  
المضي بدفعها عزم لا يعرف الكلال . وبعض البشر لا هوادة فيه .  
وثقة بالعدل لا حذ لها .

وأي قلب لا يخاف على هذه عمة لم تتجاوز الصبا تسمى وحدها في  
الطريق العامة إلى غير غايه ، وقد صحبها الفقر والحاجة والضعف وحدثة  
الس وشيء من حال يعرى بها كل عوى ، ومطمع فيها كل مفسد . وما أكثر  
السوة والمفسدين في هذه الطريق العامة التي تستقيم وتلتوي من قرى الريف  
لث الله أيتها الفتاة الناشئة إلى أين تذهبن ؟ ألم تفكرى في هذه

الكوارث والخطوب التي تضمرها الحياة للضعفاء والناشئين ، ولضعفات  
وابائسات حاسة ، وتكشف عنها شيئاً فشيئاً فإذا هي مصدر حصب  
لنشر والصر . ويسوع غزير اللبسات والآثام ؟ ألم تفكرى في هذه  
الأوصيصة التي كان يمتلئ بها مسالك والتي كانت تسلي سهارك وتروع  
لبثك ، والتي كانت تمتلئ بأحاديث لأعول وقد نمرقوا على الطريق  
يعترضون المار حين يمر بهم وقد انقطعت به السبل فإذا هم يصمرون  
له أهول كل أهول ، ويسرون له البعص كل البعص ، وإذا هم لا يكادون  
يتسمون ريحه وقد أقبل من بعيد حتى يتحلب ريقهم قرماً إلى لحمه  
وعظمه ، وحتى تصطرم في أحواضهم علة لا يرونها إلا دمه ، وهو يلعبهم  
حائفاً وجلاً قد ملأ الخرع قلبه وهرق هبع نفسه . فإن كان قد حطط  
الوصية ووعى الصيحة واستعد للقاء العود انتدبه بالسلام فقم أطفاه  
واضطره إلى السلم والمراعاة ، وإن لم يكن قد حطط ولا وعى ولا هياً نفسه  
للقاء الخطوب مر بالعول فالتقمه الله نأ ونهجه النهاماً ، وقطع الوسائل



بينه وبين من ترك وراءه ومن كان يعصى للقائهم أمامه . . . ؟

ماذا أعددت يا آمنة هؤلاء الأغوال فإنهم منشون في الطريق ؟  
ليسوا سعة كما كنت تتحدث إليك القصص ولكنهم سبعون ، بل  
أكثر من سبعين ، بل مئة ، بل مئتان قد انتثروا في الطريق ، منهم من  
جلس ينتظر القربة ومنهم من مضى يبتغيها ، منهم من يزر ضاحياً  
ومنهم من استخفى في الحقول واحتبأ في المزارع ، منهم من يظهر مظهر  
العول كريهاً مخجماً لا يكاد تلمعه العين حتى يمتلئ القلب منه فرقاً وحتى  
تندفع العريرة إلى تفاته ومحاولة احتسابه والخلاص منه ، ومنهم من يظهر  
مظهر الرجل الوديع أو الشاب الرقيق تلمعه العين فيطمئن إليه القلب ،  
وتأس إليه النفس بعد وحشتها ، ثم لا يجد منه إلا الحزن إلى غير  
ولا يظهر عنده الوثق به إلا بالشر والكر والوار منهم من اتخذ زى  
الرجل ، ومنهم من تحد رى المرأة ، وكلهم عول قد هيأته الأحداث  
لأمثالك من الغيتات الصعوبات البائسات اللاتي مذنهن الأسرة أو  
الحشون الخطوب من أصولهن فمن مشردات يستقلن الحياة جاهلات  
بها عاهلات عبا ، ولجاء بلعنهن ، تقلعهن من مكان إلى مكان ،  
وتنقلهن من شأن إلى شأن ، حتى يسبى من العشاء إلى العول الظاهر أو إلى  
العول المتكبر ، ومن من عريسة لهذا أم لذاك ، تسمى لمار وأخرى ،  
وتسمى بوس وحسب ، تسمى المرض واشفاء ، ويلقن الأم دائماً .  
وقد تلقين الموت أحياناً . . . ؟ !

محك آمنة في شيء من هذا حين نصفت مع الصباح من بيت  
أسرها فما يعصى السهم ، ومصت أمامها متلعة لا تحس جهداً ولا مشقة ،

بل لا تحس حركة ولا نشاطاً ، بل لا تشعر بأنها تعصى كما تعصى السهم  
لأنها لم تكن تفكر إلا في - حتى قد أفتت منه وهي تريد أن تبعده عنه ،  
وفي حرية قد دفعت إليها وهي تريد أن تعصى فيها انهماكاً

هي تعصى وتعصى لا تقف ولا تستع من يمين ولا شمال ولا تلتفت  
إلى وراء ، كأنها بطل من أبطال هذه القصص التي تتحدث بها الأحداث  
والأمهات ، قد مضى لعبته ووعى مصيبتها الصبح ، فهو لا يلتفت  
بحاجة أن يدركه البوار من حول وجهه عن طريقه المستقيمة أمامه ، وأما  
تسمى مسرعة تستقل بوجهها المشرق الكتيب وجسمها انصبل نشيط  
صوه الشمس ونسيم الصبح واستبساط الحياة والأحياء ، وما تزال كذلك  
حتى يعمرها الصبح وحتى تعمرها الحياة التي تشعلت من حولها ، وإما  
هي مصطرة بحكم العريرة وتحكم هذا الإغواء الذي أحد يدرك جسمها  
الصعب شيئاً فشيئاً إلى أن تعصى مصطه وتسمى هوياً ولا يكاد يصفى  
النهار حتى تسع البحر وحتى تغمره . ولا يكاد يتقدم النهار نحو العصر  
حتى تكاد قد بلغت مأسها وأنت من حدت الغداين ونهت إلى قرية  
من القرى دلت إليها تريد أن تسع عندئذها حصاً من راحة وشيئاً من  
طعام وأن تنفق حنك الليل .

نعم إن لأزبان في هذه الطريق وحيدة شريفة لا أدرك إلا تعصى  
المصيبة البائسة . وإلا جسمي السجيل المديت ، وإلا ثياباً ناسه أو كالدابة .  
وأنا مع ذلك لا أحسن ما تركت ولا بمن تركت ، وأما أسأل عما أن  
مفسدة عنه من الأمر ، ولا غير أن مفسدة عليهم من الأمر ، بل هو  
الديم في الأمر وسكر هذا الشرط المظلم الذي تسميه حب الحرمة

وادی پکنما اچیاناً من امرنا شططاً . اکت حاشه . . . اکت  
آمه . لا آری : و نه که : اشم بالأمیرین جمعاً بتعافار عل  
قلی کما بتعاقب ایل والهار علی الارض وما علیها

كُتِبَ أَصْحَفُ إِلَى أُمِّ لَرٍ أَرَى أُمِّي وَلَرٍ أَسْمَعُ صَوْتَهَا . وَلَرٍ أَرَى أَهْلَ  
الْبَارِ وَأَشَارَكَهُمْ فِي شَيْءٍ . وَلَرٍ أَتَى ذَلِكَ الْجَلَّ الشَّرْمَ وَالْعَمْسَ  
الْمَحْدَرَةَ وَسَبَّ الْعَبِيْطَ . وَلَرٍ أَحْبَبَ لَعَلَّتْهُ وَلَرٍ أَحْمَلُ بَقَرَهُ إِلَى وَتَرْصِيَهُ لِي .  
هَيْمَنِيْ هَيْبِيْ أَمَّا وَهَرَوَا وَيَسْمُ لِي الْعَبْدَةَ عَنْ أَهْلِ الْقُصُورِ وَأَحْصِيَهُ  
بِالْأَمَانِيْ وَالْأَمَانِيْ . وَأَحْدِيْ دَيْتُ قَهْةً وَشَجَاعَةً وَصَبْرًا ، فَأَعْصِيْ لَهَا مَا كُنْ  
الْإِعْمَاءُ وَلَا يَبَايِي بِلَكَلَالٍ نَمَّ كُتِبَ تُدَكِّرُ أَحْتِي وَلَا سَمَاءَ بَعْدَ أَنْ عَرَبَ  
الْمَحْرُومَاتِ الطَّرِيقَ تَحْصِيْطَ عَمِي ، وَأَحْدَيْتُ أَحْمَلُ أَلَا أَعْرِفُ أَسْ أَحْمَرُ  
بِأَحْلَا الْحَرَمِ عَنِ الْحَدَادَةِ إِلَى دَيْتُ الْعَصَاءِ الْعَرِيْضِ الَّذِي أَعْرِفُ إِذَا هُوَ

كَبُّ أَرَكْرُحَتِي مَا أَكْدَأْتُهُ دَكْرَهَا حَتَّى تُثَوِّرَ طِفْهَا ، وَأَيُّ وَهْدَا أَرَا  
أَرَاهَا ، نَبْهَ دَهَبِهِ كَمَا يَعُودُ ثَبْرَاهَا مَدَّ تَرْكَا لَدَسَةِ ، وَإِذَا أَرَاهُم  
أَنْ أَسْمَى إِيَّاهَا وَأَنْ أَمْسَا بِيَدِي وَأَنْ أَحْدَ مَعَهَا فِي الْحَدِيثِ ، وَإِذَا نَأَى  
أَتَيْتُهُ لَلْحُطِّ وَأَسَى خَصِيْمَتَهُ أَوْفَقَهُ ، وَإِذَا يَبَايَعُ آخَرُونَ سَفَحَرِي فِي غُلِي  
وَإِذَا الْحَرْبُ بِحَرِي مَعَ دِمِّي ، وَبِئْسَ حَسْمِي كَيْفَ تَارَ مَصْطَرَفُهُ بِلَاعَةِ شَرِّهِ ،  
وَإِذَا دَمُوعِي تَنْهَرُ عَنِّي حَسْمِي ، وَإِذَا ثَبْرُ مَصْطَرَفِهِ بِئْسَ أَنْ أَرَاهُ  
نَاحِيَةً مِّنَ الظُّلُمِ لَأُكَلِّمَنَّ عَنِّي مَهْلًا عَنِّي عَرَّ مَرَأًى مِّنَ الْبَاسِ

ثم أهدم مشاعه لسعي وإيا أختي ما يرى ما وراءه  
 كـ أراها أهدم هذه صديق وضييق ما وراءه  
 من حول لا تترك أحبك من الأهل أم تتركه من الأهل  
 بختة وحفظ وتسمع من يرى تتركه وحفظ من الأهل

أد على ذلك كله ماضية تقدمي القوي والنتي احياء ،  
تخص هؤلاء حياً وأسا هؤلاء سياً اح . أعمل في الحقول مرة وأعمل  
في البيوت مرة أخرى . وهذا اللود من الشعور يخلعنا على غنى  
وبتعد ، على معنى لا يتجلى في ليفة ولا يتجلى في النوم ، أنا  
مصطربة دائماً بين أهلي للذين هربت منهم هراً ، وبين أخوتي وصاحبها  
بلاي سنحس لي كلما ذكرتهم كأى سمح دعاء فيسر عنى للداعى .  
أما ماضية أمي أقدم نحو الشرق من يوم إلى يوم ول مر غير شمس  
دره غروب وأسمى رأها . ولكن لا أذكر أمتها ولا أستحضرها . وإما  
أنا فخص غير شجرة بها كأى سامعى بها مرة دعاء

[illegible]

هذه الدار هم في الخروج إلى نسي سبلا . ولكن ما خطب أهل الدار وما خطبي إن سأبوني أين كنت ؟ كيف أجيبهم ؟ . وم أجيبهم ؟ أقص عليهم حديثي كنه أم أضويه عنهم طيلاً ؟ بل ما خطب أهل الدار وما خطبي إن رأوني فأكرروني ثم أبوا أن يشتحو لي باسم وأب لقي في بما أحب ؟ يلتقوني به من الرصد والعصف والابتسام ؟ ما خطب حديجة وما خطبي إن رأني فأعرضت عني لأبها و... من فتيات الريف أو من فتيات المدينة من يقوم معها مقي ويلهبها كما كنت ألهبها ، ويشاركها في الخلد ويحب كما كنت أشاركها في الخلد واللعب ؟ أين أذهب إذا كنت في هذه الدار ، وإن من أخا دعي من أعول إذا تكررت أهل هذه الدار ؟

## ١٣

كلا ؟ بل هذه الدار كما عرفها رشيقة أليفة ، معربة مطمعة ، لا ر طاعة ولا نصير ساء ، ولا تتحهم لمر ولا تر نصف وإلى لأزاه من بعد فأسرع ، بها الحظوة كأنما أوقع إليها دفعة أو كأنما تدور ملحة فاستحيرت . وأنا لأرى دحاناً تسرع عن ريش في البحر ولا أشأ أن يصر إلى بصر عيني في الصباح وإنما أعطل الفجح من حواء من الحسم بد... وزند ، وأصيح ما يقولون ، وأبني أشراهم بها بأبني من حركة ، وأحد بهم . يلعنوني به من حديث . وإلى لأدبر من الدار وأبني... هذه الدار غرة حديجة وما غيرها من ألفة و... وأنا أنس حديج نفسها قد حلت إلى بعض ما كنت ألعب به ، أو عكسه .

على درس تستظهره أو كتاب تنظر فيه ، وكأنني أشاركها في اللعب أو أشاركها في الامتظار أو أسمع بعض ما تقرأ . وإلى لأدنو من الدار فأمثل حياة الدار كلها كأنها قد عمرتني وكأنني قد رجعت إلى مثل ما كنت منذ أشهر حراً من هذه الكل ، وشعاعاً منتشراً مستفيضاً في هذه الحياة التي تملأ الدار حركة ونشاطاً واضطراباً .

وأما هذه ألع باب الحديقة فلا أنردد في ولوجه ، وأمضي أمامي مصممة كأنما أعود إلى الدار بعد ليلة من تلك الليالي التي كنت أقصها مع أمي وأختي في ذلك المنزل الخثير ، وإلى لأمضي كما تعودت مسرعة لا أبوي على شيء ، وإلى لأصعد في السلم لا ألتفت إلى عيني ولا إلى شمال ، وإلى لأطلع غرفة حديجة فأدحها وأصادف سبتي وصديقتي عاكفة على كتاب تنظر فيه . ولكما كما نلتقي على الصبح والعش قالنا الآلا نصحك ولا نعت . ١٤ . أما هي فواحة داهلة قد أخذت على غرة ، وأما أنا فغرة في البكاء .

ثم هي تسألني أين كنت ؟ ومن أين أنت ؟ وماذا صنعت في هذه ابوت الصويل . ؟ وأنا لا أحب وأبني إلى أن أحب بغير هذه النعوع أي بهيم . وهذه أرميت لي تمحور ، وهذا السهم الذي يتردد في حلق متصل بعضه ببعض رداد شدة وشدة حتى يكاد ينهي في إلى أربة من هذه الأرباب التي تمسك أعصاب النساء حين يلح عليهم البكاء . . .

وسبتي وصديقتي قد أمست عن فتلف في وترهن في ونهون على بعض ما أجده ، وإن كانت لا تعرف شيئاً مما أجده ثم يسمع



شقيق وهذا صيدة لبيت قد أقيمت ، وإذا هي ليست أفضل دهنًا  
ولا وحملاً من أسناتها . ولكنها تصرف نقابة على صرناً شفقة عينا من هذا  
شبهه الذي قد يؤدي نفسها الشبه الشقة ، ثم تدعوني إلى أن أسعها ،  
ثم تهدي روعي وتلطف لي في الحديث وتسا لي عن أمري فلا أحبها  
شيء ، أو لا أكاد أحبها شيء ، إنما هي حل متقطعة عارفة في الدموع  
فيها ذكر الرحيل على غير موعد ، وفيها ذكر للقرية ورؤيه أهلها فيها ،  
وفيها ذكر لمصاب عظيم قد ألم بها لم يكن تنتظره ولا يفكره فتدنا  
أختي . وفيها صديق بحياة لقرية في دنت الحزن المتصل ، وحين إلى لسان  
الدمع من أن في خدمتهم إلا حبراً وبرا ، ثم فيها ذكر لعودة السعدية في  
المرتب منقوبة مسوية الخوفة ، ثم انهمار للدموع وتكدب على مسبق  
أفك بها وقد صبت كأي أشق أن تردني رداً أو تدفعني عن الدار دفعا ،  
ولكنها حذرت علي ، رفيقة لي ، تقيمي ونهضي وتأمرني أن أذهب إلى  
حيث أصبح من أمري وأسأف على في الدار ، كأن لم أفرقها  
شهرًا ، وكأن لم أفرقها محبة في غير امتندان ، وكأن لم أرد على أن  
عب يوماً وأياماً ثم عدت إلى مثل ما كنت فيه . وأنا أذهب إلى  
حجرتي وأرهد كما تركتها لم يشعلها أحد ، ولم تسكها خادم بعدى .  
ثباتي فيها كما تركتها وأدواني فيها كما عدتها لم ينقل شيء منها ولم يحول  
عن مكانه . ثم ما هي إلا أن أتني الخدم ويلقوني بشيء من الدهش  
والوجوم ، آخذ في بعض الحديث . ثم أطر فلذا كن شيء . قد استقر  
وهذا أنا وأحد في الدار من أهل الدار كأن لم يكن بيني وبين الدار فرق  
ثم أعلم ما أعلم من حزن حادثة على ووجدته في ، وبأنها على أهلها

أن يتخسروا لها حادماً غيري ونزول أهلها عند ما كانت تريد .  
ثم استأنف الحياة مع السادة والخدم كما كنت أحياها من قبل .  
ومع ذلك فما أكثر ما لقيت من الخطوب ، وما أشد ما احتملت من  
الآلام . وما أطول ما ألبقت بعيدة عن الدار من الشهور ! وكيف  
لا تطول هذه لأشهر القصار وقد كان فيها من الأحداث ما كان ، وقد  
لقيت فيها من الشر كل ما لقيت ، وقد واجهت فيها الموت ، وقد عانيت  
فيها المرض ، وقد تعرضت فيها للجنون أو لثل الجنون ، وقد تعرضت فيها  
لكل ما تعرضت له من ألوان الفتنة والمحنة والخوف . . ؟

إن أهل الدار لا يعلمون من هذا كله شيئاً وهم من أجل ذلك  
لا يكتادون بشعرون بأني فارقهم أو غبت عنهم ، ولكن أنا أعلم من هذا  
كله ما أعلم ، وأنا من أجل هذا أشعر بأني قد فارقهم وقتاً طويلاً ،  
أو أطول مما يظنون وأطول مما أظن ، وأطول مما يحسب الناس . إنهم قد نسوا  
رحلتي وسوا عودتي وانصرفوا إلى أمرهم لا يفكرون في ولا يسألون عنى .  
ولكني أنا لم أنس من هذا شيئاً . بل أنا أشعر شعوراً غريباً ، أشعر  
أنني قد أخذت من أهل الدار فتاة فلفتها هناك في قرية بعيدة  
من قرى الريف تطلها هضبة من هذه الهضاب التي تلى الصحراء ، ثم  
رددت عليهم فتاة أخرى لا يعرفونها ولا يعلمون من أمرها شيئاً . أخذت  
مهم آمنة الضاحكة في أكثر الوقت ، الباسمة دائماً ، أخذت منهم آمنة  
المرأة الساذجة التي تؤثر اللعب أو تكاد تؤثره على كل شيء ، والتي  
لا ترى في الحياة إلا لعباً ، والتي تحلم وكأنها تلعب وتدرس وكأنها  
تلعب ، وتتعلم من الخطة والدرس ما تتعلم وكأنها تلعب ، لا تعرف

اللم ولا تمشطه ، ولا تعرف أن للحياة أثقلاً وتكاليف وإعماً تؤمن بأن الحياة ابتسام للنهار إذا أشرق ، وابتسام لليل إذا أظلم وابتسام للإعلاء النهار من نشاط ، وابتسام لما يملأ الليل من أحلام ، أحدث منهم آمنة التي كانت تتشأ وتتمو كما تتشأ هذه الشجيرات في الحديقة وتتمو ، فيها نصررة ولين ، وفيها بهجة وجمال .

أحدث منهم آمنة هذه فخرقت نفسها تمريقاً ، في الطريق حين كنت فاحشة إلى العرب تركت بعضها في بيت العمدة الذي صيغما حين سمعت الحديث أخنى وحين سمعت الحديث أولئك النساء ، وتركت بعضها لهذه الأشباح الحمراء التي كانت تترامى لنا حين كنا نتحدث على سطح الدار أو حين كان يمحى بنا الحملان في الطريق الصامتة وقد تقدم الليل وقتل ، ثم تركت أكثرها في ذلك العشاء العريض فسال مع الدم الذي سال ، ودفن مع الحثة التي دفنت وسوى عليه معها التراب ثم صب عليه معها الماء ، ثم تركت صائرهما بها لتلك العلة التي ذهت بما نرى من نفسي وإن أنقت على بقية صنيلة من حسمى أحدثت الحياة تعود إليها بعد الرء قليلاً قليلاً أحدثت منهم آمنة هذه يعرفها على هذا النحو بين الملائكة والقرية ثم رددت عليهم آمنة أخرى قد شبهت في بعض ملامح الوجه ، وقد تشبهت بها نبي من سدل القدماء ، وقد تشبهت في طبيعة الصوت وبعض الحركات ، ولديها تحدثها بعدد في كل شيء . رددت عليهم آمنة الخربة دائماً ، الوجه في أكثر الوقت حتى كأنها ملهء عافله رددت عنهم آمنة التي رأت الخير بشعاً وإلهم عريان والحرم مكرراً ، فلاتت نفسها من هذا كله وإذا هي سبئة الطر بكل إنسان ،

وإذا هي شديدة الإشفاق من كل شيء ومن كل إنسان ، وإذا هي عاسة للنهار إذا أشرق عابسة لليل إذا أظلم ، وقد اتحدت لنفسها من طمة انين احناكه ثوباً كثيفاً ضامياً مأسيفته عليها إساغاً وحالت به بينها وبين كل نور وأمل وابتهاج وابتسام .

نعم ، رددت عليهم آمنة هذه التي لا تمسك الدموع إلا ريثما ترميها ، ولا تسط الوجه إلا ريثما تمضه ، ولا تقبل على شيء إلا ريثما تتصرف عنه ، ولا ترى في اللعب إلا ثقلاً ، ولا ترى في الحنينة والندرس إلا عناء وجهداً . ويح أهل الدار ! أيقبلون مني هذه الفتاة التي رددتها عليهم ويتسلون عن تلك الفتاة التي أحدثت منهم ؟ ويحي أنا من أهل الدار إن لم يهرهوني ولم يألهموني كما عزموا تلك الفتاة وألموها ! ولكنهم قوم كرام لا يضيقون لي ولا يهزرون مني ولا يلقونني إلا بالعناية والرعاية والعطف . أولم أتحدث إليهم بذلك المصائب العظيم الذي قد ألم بنا فلا قلوبنا حراً وبؤساً ؟ وإذن فهم يهزوني ويأسون جراح قلبي ، وهم لا ينظرون إلى كما ينظرون إلى حادم يجب أن تعمل أو إلى رفيقة يجب أن تعين فتاتهم على ما في الحياة من جد ولعب ، وإنما ينظرون إلى كما ينظرون إلى فتاة بائسة قد آوت إليهم فهم يؤوونها مكرمين لها مشفقين عليها ، يؤثرونها بالرحمة والراحة والمهلوه .

وخديجة . . . ويح خديجة ! ما كنت أحسب أن حياة نشأت في مثل ما نشأت فيه من نعيم ، ودرجت على مثل ما درجت عليه من ترف وتعودت ألا تمش إلا فرحة مريحة ، ما كنت أحسب أن هذه الفتاة تعرف كيف تصل إلى أعماق هذا القلب الحزين ، وكيف تبلغ

يعرّفها ما لم يكن يد من التحربة الطويلة لعصره لبلوغه بالعثل والإرادة  
لأنها تضحني في غير سؤال ، إنها لترحمني في غير تكلف ، إنها لترني  
لي في غير كبرياء ، إنها لتصرف لي عما ألفت من فرح ومرح ومن  
دعائه ولعب ، إنها لتحدث لي حدث الفتاة العاقلة الرشيدة ، إنها  
تتطلي عن همي عما تقص علي من أمرها أثناء عييتي وعما تقرأ علي مما  
قرأت أثناء هذه العية وعما تقرأني مما لم أشاركها في قراءته ، إنها لتفتح  
لي أبواباً ما كانت لتخطر لي على بال . إنها لتسني بساً عجيب لم أهمه  
إلا بعد مشقة وجهد وتكرار<sup>١</sup> تنبئني بأما قد أخذت تتعلم لغة أخرى  
نسميها الفرنسية فلا أهم منها شيئاً ، لغة أخرى ! وكيف يكون ذلك ؟  
إني أعرف أن هناك لغة الريف التي كنت أتحدثها ، ولسة القاهرة التي  
تتحدثها خديجة ، ولغة ثالثة نقرأها في الكتب فلا معجز عن فهمها  
وإن وجدنا فيه بعض العسر ، فكيف توجد لغة أخرى ، وما عسى أن  
تكون ، وكيف يتعلمها الناس ؟ إنها تظهر لي كسأ ما كنت أقدر  
أن أراها ، وإني لأتظر هذه الكتب فلا أفهم منها إلا بعض الصور ، وإني  
لأحاول النظر في الحروف فلا أعرف لها أولاً ولا آخرها ، ولا أعرف لها  
رأساً ولا ذنباً ، وإني لتضحك في رقتي ، وإني لتحس شيئاً من الكبرياء  
لأنها تعلم ما لا أعلم ، وإني لتحاول القراءة في هذه الكتب فتطلع من ذلك  
ما لا أطلع ، وإني لترحم بعض ما تقرأ فأفهم منها ما تفهم بالعربية  
وأدهش ويتشني في الدهش إلى أقصاه . . .

وهذا أستاذها السوري قد أقبل وإني لتفاه فيحدث إليهما وترد عليه

هذا الذي لا أهمه فأزداد بها وبه إعجاباً وفتنة . وهذه خديجة تكبر  
في نفسها وتكبر في نفسي وتقوم مني مقام المعلم ، وإذا هي تقرأني  
هذه الحروف التي لم أكن أقرأها ، وتعلمني هذه اللغة التي لم أكن أعلمها ،  
وإذا أنا تلميذة لها في الصباح وتلميذة معها في المساء ، وإذا المعلم يارع  
وإد التلميذة على حط من دكاء ، وإذا أنا أحد في هذه الحياة الخليفة  
وفيها يقرأ معاً وما تعلم معاً عراء أي عراء ، وسبباً أي نسيان ؟ وإني لأستار  
تلق شيئاً شيئاً بيني وبين هذا الماضي البشع القريب ، وإذا كل شيء  
في هذا الماضي ينمحي قليلاً قليلاً إلا شخصين اثنين لا ينمحيان  
ولا ينصعلان ، وإني يرتسان في نفسي ارتساماً قوياً ويتحلان أمامي  
تمثلاً متصلاً ملحاً ، وهما شخص أحني صريعاً يصح من صدرها الدم  
في الفضاء العريض ، ويغمغم فيها بكلمات لا أفهمها ، وشخص ذلك  
المهندس الشاب الذي أعرفها ودعها دعماً إلى ذلك الفضاء العريض  
الذي صرعت فيه .

نعم ! ذلك المهندس الشاب الذي سواها ودعها دعماً إلى ذلك الفضاء  
العريض . . . ثم بعد ذلك لقد مسحها الحياة . ولقد قصي عليها بالموت .  
وهي دعت سائفة من لغة الحياة وتبعها بلا هذه اثرات الحلوة التي  
حسب في هذه الدنيا راحة من درنا عبر بعيداً إلى هذه النار دُفنت



حين هيئت من أقصى الريف ، فأخذت تعرف الحسارة ونائنها وتلو  
من طياتها مرقى لها الميث وقد كان عيباً ، وحب إليها الدهر وقد كان بعيداً .  
فيا عرفت الرغف واطمأنت إلى النعم ! ولم تك تشأ وتسمو حتى  
مدت لها الحب ذراعين فيهما النعم ولؤس ، وفيها الرحمة والمذابح .  
فأسرعت إلى ما كان يترأى لها من ذلك جاهلة له ، مفتونة به ، منها لك  
عليه ، ثم انصرفت كارهة عما ملأت ، وما أدرى ما كان يجرها ويمر  
فزادها تمزيقاً حين كانت نقص على أساءها وتحدثني بأحاديثها . أهو  
النعم على ما قلعت من ذنب واقترعت من خطيئة ، أم هو الأسف على  
ما فارقت من لذة وحرمت من نعم ؟ وما أدرى ما الذي كان يملأ قلبها  
فرقاً ووعباً حين كانت تترأى لها تلك الأشباح الحمراء أهو الموت الذي  
كانت ترى تدبره منكراً بشعاً وسعماً صارحاً ملحاً ، أم هو اليأس الذي  
كان يقطع الأمانيات بينها وبين هذا هو من الشباب ، وسقى بينها وبين  
الحب ولذاته وآلامه حوائل وموانع لا تسيل إلّا بالدمار ؟

نعم ! هذا المهتمس الشاب القدر ارتسم شخصه في مدى تمام قوياً  
ملحاً ليس إلى محو من ميمنه وإنما كنت أرى أحتي في الأورام لها  
كانه الظل ، بل كأنه ظل من هذه التحلات الحمراء التي كانت تلامسها  
حين كنت أراها أثناء العلة وحين كانت تعرض لي في نظري بل لقد  
تفرقت عن أحتي كل هذه الظلال وانجذبت المحماء ، ولم يبق معي إلا هذا  
الظل الذي لا أكاد أراه حتى تصطرب نفسي اضطراباً عيباً ، وحتى يثور  
في قلبي شعور قهري يختلط بحسب شديد التعبد ، شعور فيه الحزن والرغبة ،  
وهو الغص ، وشيء يشبه الحب ، أو حب الاصطلاح على أقل تقدير .

من هذا الشاب ؟ أو من عسى أن يكون ؟ وكيف يمكن أن يكون ؟  
أي شيء فيه أغوى هذه الفتاة اليائسة ودفعها إلى ما دُفعت إليه ؟ ما عسى  
أن يكون حظي منه إن لقيته ، وأن يكون حظي مني إن لقيت ؟ أو أحبه أم  
أبغضه ؟ أبحني أم يبغضني ؟ ما هذه العواطف التي أصدت على أحتي أمرها وأصدت  
علينا جميعاً أمرنا ، وقضت على أحتي بالموت وبمعت علينا جميعاً لذة الحياة ؟  
خواطر كانت تملأ قلبي إذا أصبحت ، وكانت تملؤه إذا أصبحت ،  
وكانت تلح عليّ بين ذلك فلا تردّ عنه إلا في شيء من الجهد والعنف  
حين تلح على حديجة في الحديث أو في القراءة أو في مشاركتها فيما كانت  
تحرص على أن أشاركها فيه من الدرس والانتظار .

خواطر كانت تملأ قلبي في ليلظة ، وكانت تملؤه في النوم ، وكانت  
تصرفه عن كل شيء إلا عن هذه القصة التي سمعت دمها في ذلك القضاء  
العريض ، فدأبت الموت وذهبت تنسبها إلى السماء وهوى جسمها إلى  
الأرض وهيل عليه التراب ، وإلا هذا الشيء الذي ما زال يندو ويروح  
مرحاً مرحاً . معتبلاً مستشراً ، تسم له الحياة وتسم هو للحياة .

ليبي أدرى أيدكر صحبته تلك أم قد نسيتها وليبي أدرى أناكرها  
إن ذكرها في شيء من الرمن بها واعطف عليها والحنس إياها ، أم تذكرها  
إن ذكرها في أعراض مرعد ونعفة لم أدرى ! وأين يكون هذه القصة  
من نصه . وما أكثر الغيبات في نصه ! لقد كان بالقياس إليها كل  
شيء . ولم تكن هي بالقياس إليه شيئاً . لم تعرف غيره وعرفت هو غيرها  
كثيرات لم تدق لذة الحياة إلا من ذراعيه ، وما أكثر الموطن لي داق  
هو فيها لذت الحياة ! وما أكثر ما داق من ألوان اللذات وما بلا من  
صوف السيم ! وليبي أعرف كيف يلقي ذكرها إن ذكرت له . أيسم

لصورتها أم يلقاها بالعروس ! بل ليتني أعرف كيف يلتقي السأ البشع المروع  
إن ألقى إليه : أيعجزه أن يعلم أنها ذاق الموت وأنها ذاقته لأنه هو قد دفعها  
إليه ، أم يقع هذا النبا من نفسه موقفاً يسيراً فلا يثير في قلبه حزناً ولا أسماً  
ولا يسلط على نفسه لوعة ولا فزعاً !

وكنفك امتلأت قصي بهذا المهلس الشاب ، حتى لقد كنت  
أتحس هزراً منه فلا أظهر به إلا في جهد أي جهد وعناء أي عناء ، وحتى  
لقد أنكرت قصي وأنكرت من كان حول من الناس والأشياء ، وأنكرتني  
من كان حول حين طال عليهم ما كنت مفرقة فيه من الوجوم والذهول ،  
إلا عطيحة فإنها لم تتكفني ولم أنكرها ، وإنما مضت فيها كانت فيه رفيقة  
في عطلتها على ، تعزيني وتسليني وتفتن في ذلك ما وسعها الاثنان . وأنا  
أعرف لما هذا طاحله وأقدره وأرد عليهما بعض ما كانت تسدي إلى من  
جبل ، فأنصرف إليهما حين ألقاهما من هذه الخواطر ، ويفرغ قلبي لما  
أسمع من حديثها ولما أشاركها فيه من درس ، ولكن لا ألبث أن أعود إلى  
ما كنت فيه من وجوم وذهول . وتحس هي مني ذلك فتصرف عني  
بعض الشيء وتركني لما أنا فيه ، كأنها تقدر أن أجد في هذا الوجوم  
والذهول لغة وراحة وأطمئناناً .

وما تزال هذه الخواطر تلح علي وتشتاثر في حتى تستحيل إلى شيء من  
الرغبة القوية الملحة في أن ألقى هذا الشاب فأسمع منه وأتحدث إليه . وأنا  
أتلصص أحباره وأتبع أسرارته وأتلفظ ما يبنى عنه من حديث . ولم تكن  
داره بعيدة من دارنا ، وكأن الظروف قد اتصفت لي فتهيأت لي أن أرى  
ذهابه وحيثه من نافلتني حين يعدو من داره أو يروح إليها ، من هذه  
الناعمة التي طالما كنت أبادل أختي منها الإشارة وأسارقها منها بعض

الحديث . من هذه الناعمة التي لم أذكرها ولم أدن منها حين عدت إلى  
الدار ، وإنما مكثت ألباماً وأسابع أحهلها جهلاً وأهلها إهمالاً . ثم حطرت  
لي فجأة وهزضت علي مكانها فرضاً ، فإذا أنا أدنوها وجلة ، أفتحها حرعة  
محروقة ، أريد أن أقف إليها لأتمثل فيها صورة هادي ، داهية حائية ،  
منعوبة بما كانت تنمي به من أعاني الريف ثم أعاني المدينة . ويرى لأحد  
موقف من الناعمة في الأيام الأولى فلا أرى شيئاً ولا أسمع شيئاً ، وإنما هو  
قلب ينمطر ، ودموع تنهر ، وصورة لأختي لا تأتي من الدار ولا تمر  
إلى ما بين يدي ويب من طريقي ، وإنما تأتي شاحنة حزينة من قلبي هذا  
الآسف الحزين . وأنا مع ذلك أطلب الوقوف إلى الناعمة وأكرره . وأدنو  
مها كلما أتيج لي لدنو في نهار حياً وفي الليل أحياناً . آلتها وتألقي ،  
حتى أصبح وقوف من وجلومي إليها عادة طبيعية من عاداتي كلما دحلت  
الحجرة وأعفت ناسها من دوي . والأيام تمضي وتتبعها السبيل ، وإنا أنا  
أقف إلى الناعمة وأجلس إليها فلا تنهر الدموع ، ولا تتمثل في صورة  
أختي شاحنة كئيبة ، وإنما أنا أرى أمامي وأنظر ، فإذا صورة أختي كما  
كنت أعرفها تذهب ونحي . صوت أختي يتشرب في انقضاء فيمضد فرحاً  
ومرحاً وسعادة وسروراً ، متممة بهذه الأعنية التي طالما كنت نرددها  
بصوتها الرحيم لمحتلى العذب فيحسها الهواء إلى العوس كأنها قطرت السدى  
أه يا دينا من عرامه يا نا وإن كنت أحبه ما عني ملامه

وما كنت أعلم من هذه الأعنية إلا ما يفهمه الناس حمداً ، إن كان  
الناس يفهمون من شيئاً ، فهي شائعة دائمة في المدينة وفيها حوض من الحصى  
تسمعها في كل عرس وتسمعها من كل امرأة ومن كل فتاة . لا من كل





انقضى من الليل أكثر من ثلثيه ، وإذا أنا فائمة إلى الدفء في هذه  
المواعيد أريد - من مخرج ، وأراه حين يدخل ، ولا تقصص نفسي لأمر من  
المعروف أنه تخلى من الأثمان لا بد من ربيحها إلى أسرارها بعد انقضاء  
من حبل بين وبين ذلك لطائف من قلبه أو من قلبه هي الحياة  
المضطربة والعصر المرفقة ، وتذكر المشرقة ، وتبني لاهدا ولا تفر

ثم تشد الأثر في تمنع لرعة في هذه المرافقة عني ، وإذا أنا أطمس  
الأبواب التي لا يخرج منها من داره مع مسح فأبى فيها آدم الدفء أرف  
ما أرحه أنه لن يكون ، ولكن أرفه على كثر حلا لا أريد أن  
يقوى من ... ، كأنني نضبت به حيا اتصالا ، ...  
الأسباب ... من هذه ... وهي ... لا تخرج  
... من ... وهي ... وأن أحسن  
مع ... ليس إلا أن ... وأن يوما مرصا أو ... من  
غير ... لا تخفى ... لأراها ...  
خارج ... بل تخفى ... وأعرف  
أحد ... أن ... على ...  
... من ... إلى ...  
... من ... في ...  
... من ...  
... من ...  
... من ...  
... من ...  
... من ...

وإدعاء . وأهوى مع ذلك في جهاد نفسي ومنهجها حتى إذا امتدح كل  
شيء ، وعلقت الأبواب ، وانقطعت سبيل إلى الدار . اضطرت إلى أن  
أكون من مصحبي ، وبعثت لنفسي يوما من أيام لبصر وأمدأ من أمد  
الوقت ، وأجلت المزيمة والتسليم إلى غد .

وبين لأرى نفسي ذات يوم وقد تقدم النهار حتى كاد ينقضي وأحدث  
علائق اللل الشاحنة تعرو الأرض ، وإن لأرى حارحة كالمسلة من دار  
المأمور ، ساعة كالحارة التي نحرص على الاستحمام ، أدور حول الدار  
محاور أسوار الحديقة حتى لا كاد أمسحها مسحا ، ثم مسطرة بعد  
عيل ، ثم مسطرة كالمهم حتى أقطع ما بين الدارين من طريق وألح  
حديقة المهندس ، ثم أسمى هادئة مضطربة معا نحو البستان كأنما  
أريد أن أسأله عن شيء ، حتى إذا بلغته لم أستطع أن أقول له شيئا ،  
وإنما وقفت أمامه داهية عاصفة بلهاء بمدكني الخوف ويعمرني الحياة .  
أريد أن أمضي أمامي حتى أدخل الدار وأسع عرفة هادئة ، فأقصي  
فيها خطة أو خطبات ، ولكني لا أستطيع أن أقدم ، والبستان يسألني  
من أنا ومن أين أقبلت وماذا أريد ؟ فإذا ألح علي في السؤال وأحسست  
أن حسني بطول وأن الرجل ميسرني إلى الصديق في وعاء أعرض عليه من  
عنه ، به يدهون ، ولسب مايرة ، وانصرفت دافرة لا ألبس على شيء ،  
كأنني أحتسب أن يسعني قاع أو يتعقني معقب . وما أريد أشد في عدو  
حتى أسع دارا فأسل إليها لم يشعر خروحي منها ولا يعودني إليها أحد  
ثم أمضي مساهلة متدافلة حتى أسع عرفة وأحد موفى من الدفء وقد  
سحلت على نفسي بعض المزيمة وإن لم أنه بها إلى الغاية .

على أن أملت الطريق بين هاتين الدارين ، وأملت البستان والاختلاف  
إليه ، والأخذ معه في أطراف من الحديث ، وتبادل الإشارات معه من  
النافذة ومساوقته ببعض الكلام .

ثم لم تتصل الأيام بيني وبين هذا البستان حتى كان الظاهر من أمر  
هذا المهندس الشاب عندي واضحاً مبهماً . أعرف من عاداته أطواراً من دهائه  
وإيابه ومن حده وهوله ما يمكن لمثل أن يعرفه حين يتصل بمحمد والمهريين إليه .

على أن المعرفة لم تقتصر على البستان وإنما دخلت إلى الخادم . فقد  
كان هذا المهندس لا يستطيع أن يتخلى بستانه ، وإنما هو في حاجة إلى  
خادم تطلع من أمره وتشرّف له على نظام الدار . وقد علمت أن أحق لم  
تكذب تعارفه حتى تجعل البحث عمر يعلمها ، واعتلى بعد قليل من أهل  
إلى هذه الفتاة الجميلة الوداعة ذات الوجه المشرق والجسم النحيل والعمل  
الضيق القصير . هتدي إلى مسكنة ، هذه التي أقامت عنده حبيبة  
لأختي ، والتي كنت أنحدث إليها فلا أرى عندها أعاء . ولا أجد في  
الاستماع إلى أحاديثها لذة ، ولا أحد مشاطاً لي أن أشاركها فيما نحوص  
فيه من لغو . ولكن مع ذلك كنت حريصة كل الحرص على أن تشد  
الصلة بيني وبينها ونزول الكلفة . ولم يكن في هذا مشقة ولا عسر ، في  
أسرع ما اتصل الحديث ! وما أسرع ما انتهينا به إلى الدخائل والأسرار !  
وما أسرع ما أحست في نفسي عداوة آتمة تشد كل يوم وتتم حتى  
تملاً قلبي وتملك على كل أمري وتكاد تخرجني عن طوري وتدفعني إلى  
ما لا خير فيه . فقد فهمت - ولتي لم أفهم - أن مكينة لم تحلف هادي  
على الإصلاح من أمر الدار والقيام بما تحتاج إليه من خلفة فحسب ،

وإنما حلفت على قلب هذا الشاب إن كان لهذا الشاب قلب ، بل ختمتها  
على هواه ومحبه وعلى لثمه وعواينه ، وما أكثر ما هذا الشاب من الهوى والعون ،  
ومن الإثم والعورة ! إنما هو صائد يحفل الفئات احتلالاً ويحسد احتلاماً ،  
تصرفه عن الحادثة ويحرف عن القصد ، حتى إذا بلغ من ما يرمده  
من حللي يبين ومن ما يستره من الموت أو من حبه هي شر من الموت .

وإذن فقد حان هادي ولم يخط لها عهداً ولم يستبق لها مودة ، ولم  
يكذب بعارقها حتى انصرف عنها وزهد فيها ، والنفس لديه وهواه حيث  
استطاع ، لم يحفل بما قدم من سوء ، ولم يحفل بما قدمت إليه من تفضية ،  
ولم يضر إلى هذا كله إلا على أنه لم يكن فيه الوقت ويستعان به على  
احتمال الحياة وتسلّي به الغربة في مدن الأقاليم .

هو حاتم إدر ، وهو يصيب إثم الحياة إلى إثم العروة ، وهو حتى  
أن ينق حراء هذين الإثمين كأشع ما يكون الحراء ، وهو لا في حقه من  
هذا الحراء في يوم من الأيام . ولأفبه من يد آمنة هذه لى شهدت لموت  
مربى . شهدته حين عُدّي على أحبها من يد ذلك الحار لأثيم في ذلك  
المصاء المريض ، وشهدته حين عُدّي على ذكرى أحبها من يد هذا  
المهندس الشاب العاوي وفي هذه الدار الصغيرة الأبيقة اني يقوم على  
استئان وتصطرب فيها مسكنة كما كانت تصطرب فيها هادي .

نعم هذه التي تصطرب في قلبي اضطراباً وتحب في التفكير في  
الموت وكيف يساق إلى الناس ، وتحب إلى التفكير في الحياض التي  
تغرق الصلور وفي السم الذي يعمق الأحشاء . أعيرة هذه بي على ما ادم في  
عرواقه ويصعد له الله في وجهي ويصلح لها عيناى بشي ، كأنه سرور ،

يحمل أهل الدار على أن ينكروا منظري وعلى أن يشاءوا ما خطبي وإلى  
أى حال سينتهي بي ما أنا فيه من الدحول ؟

أغيرة هذه التي زادت الحزن عن نفسي وأقامت مكانه غصاً ثائراً  
متصلاً لا يهدأ ولا ينقضي ؟ ولمن أعار أو على من أعار ؟ أغائرة أنا لهذه  
الأخت البائسة التي ذقت الموت في سبيل هذا القبيح دون أن يكون  
لنصحتها أهلاً ؟ أغائرة أنا لهذه الرغبة التي كانت عملاً نفسي وتملك قلبي  
وتدفعني دفناً إلى أن أعرف من أمر هذا الشاب ما كنت أجهل ، والتي  
لم تكذب تبلغ غايتها حتى انتهت إلى بأس مهلك لا يخرج منه ولا آخر له ؟  
أغائرة أنا لهذا التعكير الطويل فبمن لم يكن أهلاً للتفكير ؟ لمن هذه الغيرة  
وعلى من هذه الغيرة ، أو إلام تريد أن تنتهي بي هذه الغيرة ؟

لا أدري ! ولكني أعلم أنها قد جعلت مقامي في دار المأمور صبراً  
ومشرقاً لخديجة شاقة ! فقد توحشت أو كدت أنوحش ، وأصبحت نافرة  
من كل شيء حتى من خديجة التي لم أكن أظن أنني سأعرض عنها يوم  
من الأيام . وقد أخلت أحسن أن مقامي قد أخذ يحفل ، وأن عشتري  
قد أخلت تشق على من حولي ، وأن خديجة قد أخلت تجزيني جفاء  
بجفاء وإعراضاً بإعراض .

لك لله يا آمنة إلام تدفعك هذه النفس المضطربة التي لا يهدأ ، وهذه  
المواطف الثائرة التي لا تستقر ، وهذا القلب الهائم الذي لا يعرف ما يريد ؟

وأصبحت ذات يوم فإذا شيء عريب يصطرب في حو الدار أحبه  
ولا أنسيه ، وأشعر به ولا أحققه ، أغفه في وجه المأمور وفي وجه ربة البيت  
حين ينصران إلى خديجة ثم يسترقان نظرات فيهما أمل متبع وحرن مكث ،  
وحين يحلوان للحديث بعد العشاء أو بعد العشاء فتطول بينهما الحدة أكثر  
تتحدث أن تطول . وأغفه في هذا الانسجام الذي يهديه المأمور صحياناً  
كريمياً إلى أهل الدار جميعاً ، متحدثاً إلى من لم يكن يتحدث إليه ، متلصصاً  
لمن لم يكن يحمل بوجوده ، وفي نظرات طويلة يلقيها على أنا حين ينقار ،  
وفيها تظهر ربة البيت من تسط مع الخدم وعطف عليهم والميل إلى أن  
تأخذ معهم بأطراف الحديث .

أغفه في هذا كله ، ولكني أجد فيه خصوصاً بشر مي إلى الاستطلاع ،  
ويكد يسليني بعض الشيء عن المهدس الشاب وعمما يقع في داره من حياة  
وإثم وعمما يثير في نفسي من عصب وعيرة . وأهم أن أسأل خديجة عن هذا  
الذي أغفه ولا أنسيه ، ولكني أحدها عاقلة لا تدمج شيئاً ولا تحس شيئاً  
تعرض عما هممت به وأكثرت بالملاحظة والانتظار على أن الاستظار م  
عن ، في تمضي أيام عبيثة حتى يظهر حركة في دار المهندس الشاب  
تبع حركة في دارنا ، ثم تتلاحق الحوادث بسرعة ، وهذا هي تسكني  
بعمرو ويتأثر في نفسي كل شيء وتذكركي بكل شيء في وقت واحد



وتخرجني من هذا السكون ليأشرف على شاطئ نهر النيل فدفعت إليه  
دفعاً .

هذا بيت المهندس الشاب قد ظهرت فيه الحركة وكثر فيه الاضطراب  
فأثارته بنقل من مكان إلى مكان وببنايه الإصلاح والتنظيف والترتيب ،  
ويؤثر إليه بأثاث لم يكن فيه ، بعضه مشترى تعهر عليه الحدة ، وبعضه  
مستعار يظهر عليه انقراض ، كأنما تنبأ الدار لاستقبال بعض الزائرين ،  
وهي تعد لهم ما يحتاجون إليه من لفرجات والمخبرات ومن الأدوات والأثاث .  
والبستاني مسرف في الحركة مدفع في الشاطئ ، أراه ها وأراه هناك ،  
وقد استعان باثنين أو ثلاثة من شباب المدينة يعملون معه في النقل  
والتنظيف والترتيب . وسكنة تعمل معهم لراصية ولا ساحطة ،  
لامشجعة ولا مستسمة ، وإعما هي تذهب وتجيء كأنها أداة لا تعرف الرحا  
ولا السخط ، ولا تحسن الحزن أو الفرح .

وهذه الحركة المتصلة في بيت المهندس قد أثارت حركة فائقة متقطعة  
في بيتنا ! فهذا سرير ينقل ، وهذه صناديق تعار ، وهذه آية تجمع ثم  
تحمّل ، وهذه ربة البيت تكلمني راصية باسمه أن أذهب إلى بيت المهندس  
فأعين الخدم على بعض ما يعملون ، وأن أشرف على التنظيم والتنظيف  
والترتيب . وأن أعني بأن تنبأ الدار لاستقبال الزائرين تهيئة حسنة لا عيب  
فيها ولا تقص . ثم هذه ربة البيت تستعد في بيتها لتهيئة الطعام الذي سيقبل  
إلى بيت المهندس إذا كان العدا ، ولإعداد الوليمة التي مستقام في دارها إذا  
كان اليوم الذي يليه .

وما أكاد أذهب إلى بيت المهندس وأخذ مع الخدم في العمل والحديث

حتى أعلم - وليشئ ثم أعلم - ، وأفهم - وبيني لم أفهم - أن أسرة  
المهندس مقبلة من القاهرة إذا كان العدا لتقيم مع ابنها أياماً أو أسابيع ،  
وأن هذه الزيارة ليست كغيرها من الزيارات ، وإنما هي زيارة تتم لأمر  
يراد ، فتحطت بنت المأمور للمهندس الشاب ، وتستشهد المدينة أفراحاً  
لم تشهدا مد عهد بعيد ، ويسمع أهل المدينة من ألوان العناء ما لم يتعودوا  
أن يسمعوا من قبل ، فلن يقرأ عليهم المولد هذا المعنى المشهور الذي يقيم  
في عاصمة الإقليم والذي يتعصب له أهل العاصمة وما حوله من القرى  
وما يحلوهما من المدن . ولن يقرأ لهم المولد هذا المعنى الآخر الذي يقيم في  
أقصى الإقليم نحو الشمال والذي ينافس صاحبه أشد المنافسة ويتعصب  
له نصف الإقليم أو ما بقرب من نصفه . ولن يقرأ لهم المولد الشيخ مذكور  
هذا الذي يقيم في المدينة نفسها ويحبه أهل الريف ، ولكن شهرته لا تتجاوز  
المدينة إلا قليلاً . لن يقرأ لهم المولد واحد من هؤلاء المعينين . ولكنهم  
سيسمعون لمن يأتي من القاهرة ، قد يكون عدو الحى ، وقد يكون الشيخ  
يوسف ، وقد يكون غيرهما من كبار المعينين وستأتى العوازم من القاهرة ،  
وستأتى معية مشهورة لتطرب السيدات ، وستقام الزينة وتولم الولايم على  
أحسن طراز وأهل شكل ، وسيأتى المظمون لذلك والمشهورون عليه من  
القاهرة لا من المدينة ولا من عاصمة الإقليم . وكان الخدم يفيضون في  
ذلك ، وبحرون في تفصيله مع هذا الحبيب الرقيق الساذج الذي يحسب أنه  
بعضى أمامه إلى أنعد آمد على حبل لا يزال في مكانه لم يتجاوزوه أو لم يكده  
بتجاوزوه إلا قليلاً .

كانوا يفيضون في الحديث عن المعنى والمغنية ، وفي الحديث عن الطهارة

• سيئون الصعاء • وعن فراسين اندس سطعون لوعة ويطوفون  
 من بالاطاق والأقداح ، وعن ابوسفي التي ستاتي من القاهرة  
 متفصى في المدينة يومين أو أياماً تطرب الناس في الصباح وتطرب الناس في  
 المساء ، وعن مدعوين ندس سينهدون الحبل ونديس يدعون إليه من  
 قريب ومن بعيد ، وفيهم شذوات والكاوت ، وفيهم لعناء من شيوخ الأهر  
 كانوا يبعصون في هذا كله ، ويحسون في الإفاضة فيه لمدة يتمحرون  
 بها الحوادث ويستفون بها إلى ما ينظرون من فرح وعطية وانهاج .  
 وكنت أنا أسمع لأحاديثهم فأفهمها ، وأعي أفعالها وأهل أكرها ، وأفكر  
 فيما لم يكن بد من أن أفكر فيه ، وهو أن هذا المهندس الشاب  
 قد أعوى أخنى ثم دفعها إلى الموت ، ثم أخذ بحورها وبسبك ما كان  
 يجب لها عنده من حرمة ، ثم هو الآن ينظم الحيانة نظماً ، ويريد أن  
 يأتيها ويقدم عليها ويمسح فيها حجرة باسم الدين والعرف والقانون .

نعم ! ولن نكون سكية هذه العاقلة البلهاء التي لا أعرفها ولا  
 تعرفني إلا منذ حين ، لن تكون خليفة هنادى على بيت هذا الفتى وقلبه  
 ومحوره وإثمة ، ولكن التي تحلف هنادى على هذا كله ستكون خديجة ،  
 خديجة أحب الناس إلى وآثرهم عندي وأحسنهم مكاناً من فنى ، خديجة  
 التي أحدها عندها - وعندها وحدها - العراء عما لقيت من شر وما  
 احتملت من بكر وما ألم من مكروه ، خديجة التي أستمعن بها على  
 احمرار هذا الخطب الذي أصابى في أخنى وفي أهلى ، هذه هي التي  
 ستراد على أن تأخذ من قلب المهندس الشاب ، ومن بيته ، ومن حياته  
 كلها . كذا ما يسعى لعتاة أن تأخذه بعد أن سبقت إليه هنادى وأدت ثمة

ذلك سم تركي ندى أريق في دنت انصاء عريض  
 ولم أكن أسأل نفسي كيف يكون موقع هذا أسأ من نفس خديجة  
 حين ينق إليها أنكره مصيق به . أم تحبه وسهج له ؟ ولم أكن أسأ  
 نفسي كيف تجد خديجة موقعي منها حين أحول أن أصد عنها حب هد  
 أرحل وآتم وأن رزئت عنه . رأ أندل في دنت من القوة والجهد  
 ومن الحيلة والذكاء ما أملك وما لا أملك ؟

لم أكن أسأل نفسي عن شيء من هذا ، ولكي كنت نائرة أشد  
 الثورة وأعنفها ، مؤمنة أشد الإيمان وأقواه بأن هذا الأمر لن يكون ،  
 مصممة أشد لتصميم على ألا يكون مهما تنبأ له الظروف ومهما  
 تتظاهر عليه القوى .

ثم لم أكن أسأل نفسي عن كل هذه الحواطر التي كانت نحيش في  
 صدرى ونعت في هذه الثورة وهذا الإيمان وهذا التصميم . أكانت  
 حواطر صادقة أم كانت كاذبة ؟ أكنت وفيه لأخنى بالعهد مشفقه  
 على حقها أن يصعب ، حريصة على أن أحتفظ لها بهذا العاشق الخائس  
 رغم أنه ، مقاومة في سبيل ذلك قوة المظرة وقوانين الحياة . أم كنت  
 أتخذ هذه الحواطر حجة ونعلة أخنى بها على نفسي ما لا أحب أن نظهر عليه .  
 وأسئر بها دون قلبي ما لا أحد الشجاعة على أن أواجهه به في صراحة  
 وجلاء ؟

لم أكن أسأل نفسي عن شيء من هذا بل لم أكن أسأل نفسي  
 عن شيء ما ، وإنا كنت أفنى فوق وجهدى وتفكيرى في أن أحول  
 بين خديجة وبين هذا التدمير الذي يدبر وهذا المكيد الذي يراد . وكثيراً

ما كان يخطر لي أنني أحمي خديجة من شر عظيم ، وأحول بينها وبين خطر منكر ، وأقوم دورها أن يقرسها السبع أو يفتالها الثعب ، وأمن بها على أن تبذل هذا المحرم الآثم الذي لا يعرف حقاً ولا يرعى حرمة ولا يرحو وقاراً لخلق ولا دين . وكثيراً ما كنت أقدر أن قياسي دون خديجة وحمايتها من هذا الخطر الذي يترسك أن يلم بها فرص يأخذني به الوفاء لما بسا من مودة ، والرعاية لما لها عندى من حيل . وكثيراً ما كان هذا كله يجتمع ويأتلف يحصه إلى بعض ويمثل أمام عيني محتسماً مؤثماً قد اتخذ من لوفاء والصبح والإخلاص ربه حلالة . وإذا هو أمامي امرأة نقية صامية ، أنظر فيها فترا إلى صورة نفس كريمة عطية قد ارتفعت عن كل نقيصة ، وأصبحت مثلاً للبطولة واشتهت بالنصحنة في سبيل الأعداء التي أراها الخطر ، والصديق التي يوشك الخطر أن يعتالها . ولو أن حولت وجهي عن هذه المرأة بعض الشيء في ذلك الوقت ، ولو أني نظرت في عيني ولم أنظر أمامها ولا من حولي . ولو أني تعمقت قلبي في حرارة صميمي ، لرأيت شراً ما له من شر ، ولشهدت هولاً ما له من هول ، ولعرفت أنني لم أكن في لأحني ولا لصديق ، وإنما كنت أؤثر نفسي من أراء بخيراً وشرّاً ، وأمف هذه النار المصطربة المتأحجة على نفسي وأحبها من أن يحترق بها أحد غيري !

نعم ! ولكنني لم أكن أنظر في عيني ولا أحاول النظر فيها . وإنما كنت مدهوعة إلى إفساد هذا الأمر الذي يدر ، وسع لأسباب أن توصل بين خديجة وبين هذا المهندس الشاب الذي كان لأحني مند حين والذي يجب أن يكون لي بعد حين ، كأنما ورثته عنها بعد الموت !

والعرب أن هذه الحواظر المصطربة كنها لم تعتمد من أمرى شيئاً ، ولم تعير من شكى ولا من مقام حنان لدى ألقه أهل الدار قليلاً ولا كثيراً . إنما كنت أصبح وأمسى ، وأذهب وأحيى ، وأعمل وأكمل ، وأشط وأقتر ، كما رأي أهل دار من قبل . بل حبراً مما تعودوا أن يروى في الأيام الأخيرة بعد ذهب عني الدهون ، وهارقي الوجوم . واستقرت عباى وهدأنا واستقامتا ، فبيتنا تصبرنا ولا نقدحنا الشرر أو ما يشبه الشرر ، ولا نظران هذه النظرات التي كانت تخيف مني وتثير في العوس من حولي شكاً وريباً وإشفاقاً . عدت إلى هدوء غير مألوف ، وانطلق لساني بالحديث ، بل تردد الانسجام على شفتي . وأحد الإشراف يتفرق في وجهي من حين إلى حين ، حتى لم يشك أحد في أن هذا المرح الطائر قد شعاني بما كنت أحد ، وردت إلى ما كان قد هارقي . من اعتدال المزاج .

ثم نصح وإذا الزائرون قد أقبلوا ، وإذا النشاط المنتسم السعيد يملأ الدار جميعاً ، وإذا أنا أشارك من حولي في مظاهر ما يجحدون من فرح وسهجة ، وأعرد وحدي بلوعة لا تنقضي وحزن لا تخمد ناره . يا لقوة النساء ! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنها لا جد لها . يا لمكر النساء ! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنه لا آخر له ولا قرار . يا لقدرة النساء على الكيد ومراعاتهن في التلوين وهوضهن بأثقل الأعباء وثباتهن لأفدح الخطوب !

لقد أكرت نفسي ، بل أكرت المرأة في نفسي حين رأيتني أضطرب في هذا التمثيل وكأنني أضطرب في الحياة الواقعة لا بأخلفني أحد !



ولا أحد يصي يصنع أو تكلف أو محاولة ، وإنما أنا أكذب وأناق  
وأصطع الرياء وأحسب ما أحس وأظهر ما أظهر ، في سهولة ويسر ، كما  
نفس وكما أفتح عيني وأعمصها ، وكما آتي ما تدعني العريضة إلى أن  
آتي به من الحركات ، ومع ذلك فمعص ما عرص لي من الخطب ومعص  
ما ألم لي من الهم كان حليفاً أن يحول بيني وبين الحياة فصلاً عن الحياة  
المادة المصطنعة ، فصلاً عن هذه الحياة المصاعقة التي يملؤها الكذب  
ويجري فيها الرياء كما يجري الماء في العنبر الرطب .

## ١٧

واسمى اسماً في حديجة . كما انتهى هذه الأسماء في الغنيات من نيات  
الصغيات الوصى ، طاهراً حبياً ، وواضحاً عامصاً ، يتقرب إليها ويسر  
عنها ، تسأله وتردعه ، فتج له نفسها وتحتج مع ذلك من أن  
تحدث فيه ، ويمتنع به فيها عظة وسروراً ، ويعرض عليها الأدب  
مع ذلك أن تنكف الكآبة والحزن كما ذكره . وأن تعرض بوجهها  
عريضاً كما هم أحد أن يشبر إليه من قريب أو بعيد . وأن تفرقه  
فراراً ! لأن الحديث هو إليها صريحاً حبياً ، على أن يبقى ردي تكلف  
من ذلك ما يتخلفه أماناً مع من كان حولها من أهل الدار ، قد أثرتني  
ما كانت تؤثر به في كل شيء من هذه الصريحة السادسة ' الخلية '  
فلم يحف عني ما كان يملأ قلبها من فرح وعظة ، وما كان يعنى  
بها من فن وإشراق ، وما أكثر ما تحدثت إلى وما أكثر ما تحدثت

إليها في أمر الخطبة والزواج ، وفيما تحيط بالخطبة والزواج من هذه الأمور  
التي لا تحصى ولا تحصى ! وما أكثر ما تحدثت عن خطبتها المهدس  
وعما يعرف وما لا يعرف من صفاته وأخلاقه وأسرته وثرثته !  
وما أكثر ما أغرقنا في الأمل ومصينا مع الخيال ! وما أكثر ما فصنا  
الأمور تفصيلاً ، وأطلقنا الوقوف عند الدقائق وانصاعنا من الأمر ،  
فتحدثنا عن الثياب التي تشتري ، وعن الحلى وعن الأثاث ، وأقمنا  
القصور وأقمنا إقامتها إقامتنا !

وأنا في هذا كله أجازى صديق مجارة بسيرة لا أنكلف فيها ولا أحاول  
حتى لم تشك لحظة في أنني أشاركها في أمر الخطبة والزواج كما كنت  
أشاركها قديماً في أمر اللعب ، وكما كنت أشاركها إلى أمس في الدرس  
والقراءة والامتناع . بل نحن نتحدث فيها سيكون عدداً أو بعد عد حين  
ينم هذا الأمر ، وحين تستقر خديجة في دارها ونصح ربة بيت . ونحدث  
في الفرس الذي لا بد من أن نحصى فيه ، وفي القراءة التي لا نستطيع أن  
نصرف عنها ، ونرتب أمراً على أني سأنتقل مع خديجة إلى حيث نكون ،  
وسأشاركها في حياتها مهما تكن الظروف ، وما الذي يمنع من ذلك  
وما دخلت هذه الدار إلا لها ، وما عملت في هذه الدار إلا معها ،  
وما استطعت في يوم من الأيام أن تقل شركة أو ترعى من أهلها أن  
يكلموني عما لا يتصل بها من الأمر ، كنت لها طفلة وكنت لها فتاة ،  
ويجب أن أكون لها حين تصبح زوجاً وربة بيت .

نعم ! ما أكثر ما تحدثنا في هذا كله وأقمنا فيه الساعات أثناء  
النهار حين كان من حولنا بصطربون فيها بضطرب فيه أهل الدار حين

شياً لإقامة الأفراح ، وأنفقنا فيه الساعات أثناء الليل حين كان كل شيء من حولنا يسكن هذا السكون العميق الذي تمتاز به ليالي الريف ! ولكن نفسي في هذه الساعات كلها لم تكن هادئة ولا مطمئنة ، وإنما كانت ثائرة جامحة . وكنت كثيراً ما أكف عن الحديث لأفكر في هذا الشخص الغريب الذي يحتوي نصين متناقضتين أشد التناقض . نفساً تهيج وأخرى تنس ، نفساً نعد وأخرى توعد ، نفساً تمضي في الحديث بما يسر ويضر وأخرى تمضي في تدبير ما يحزن ويسمع .

وتنقضي الأيام الأولى ، ويكون الغمام ويكون التراور ، ويكون الامتحان للخدمة بالنظر والحديث ، ويلتف كل شيء من غايته ، ويستحيل الجو إلى الوضوح والحلاء ، وتكس أهل الدارين في حركته مرور وضطة وأمل ورجاء في غد .

ويدنو أهل الدارين من هذا اليوم الذي تتكشف الأمور فيه عن نفسها ، وتصيح الخطبة فيه أمراً واقعاً يعرفه كل الناس ، وأنا مؤثرة للصمت أحدها فيما يأخذ فيه أهل الدارين من ألوان النشاط . ولكني أجدني في ساعة من ساعات النهار وقد آذنت الشمس أن تتحدر إلى مغربها ، وانتشر في الجو هذا الحزن الصليل اليسير الذي يتشر به مع الأصيل فيهدئ من نشاط الشمس ، ويخفف من وجيب القلوب ، ويلقي على الآمال المشرقة بعض الشحوب ، ويجري في الأصوات الفرحة نغمة لانحدر من كآبة ، أجدني في ساعة من هذه الساعات مقبلة على ربة البيت ، حتى إذا بلغت عرفتني دخلت لا أسأذن ، ثم أغلقت الباب من دوني لا أستأذن . ثم وقعت واحدة بين يدي سيدتي لا أكون شيئاً ، وإنما سحدر

اللمرغ غريبة على حدى ، وسيدتي تنظر إليّ في غير انكار وفي غير لوم ، كأنها قد فهمت عني ما أردت أو أقول ، وكأنها قد استجابت لدعائي ، فهي ترفق بي وتؤكد لي أني لن أفارق خديجة ولن يحول بيني وبينها حائل ، وأني سأفضل معها حين تنقل وأسافر معها حين تسافر ، وسأقيم معها حين تقيم ، وأن أحسن حظاً منها مني ! هي مصطرة إلى أن تعارف ابنتها . أما أنا من أفارق سيأتي وصديقي

وأنا أسمع هذا الحديث وأفهمه ولكنه لا يسع مني ولا يؤثر في نفسي ، فما لهذا الحديث أقيب وما حاجتي إلى أن أسمعه من ربة البيت وقد سمعت ألف مرة وسرة من خديجة ! وفي استطاعت ربة البيت أن تفرق بيني وبين أسناني جد أو لبيد كذا . لم أقبل لأسمع هذا الحديث ، بل لم أقبل لأسمع شيئاً . وإنما أقبّل المحو شيئاً . وقد فلت في صوت عاصف نله هذه اللمرغ المخلدة الهمة . ركبت . أقدر أنه سيفزع من هذه المرأة مروح الصاعق ، وأن قد دخلت هذه المرأة في هلعها ولن أخرج منها إلا في عصف واضطراب . ولكني قد أتممت ما أردت أن أقول ، وانتظرت ثم نظرت ، فلم أسمع ولم أر على هذه المرأة اضطراباً ولا دهشاً ولا شيئاً يشبه الاضطراب واللعش . ثم هممت أن أصرف عجلة مستخفية ، ولكنها وهنت بالإشارة وتركتني لحظة لا بدول لي شيئاً ولا تلقى إلى لحظة ، ثم قالت في صوت عادي مترن : وهل أنبات خديجة من هذا بشيء ؟

قلت وقد أغرقت في البكاء : كلا يا سيدتي ! وما ينبغي لنفس خديجة الطامرة البريئة أن يلقى إليها حديث هذا الإثم . ولولا أني

أوتر حديجة وأوتر الأسرة كلها لما أسأتك بشيء ، ولا أفصيت إليك سر هذه الأسرة الدثمة التي تعيش في يؤمها المظلم في أقصى الريف .  
قالت وقد هضمت إلى مشاغله - لا بأس عليك ! على يد ع سر أسرتك ثم صممتي إليها وفسي وهي تقول : لقد أنقذت استي من شر عظيم .

## ١٨

قلت نعم يا سيدتي ، قد أنقذت حديجة من شر عظيم ، ولكنك تربي معي أن لا مقام لي في هذه الدار منذ الآن ! فكل شيء . يأمرني بالتحول عنها قالت وقد أحسست في صونها أنها مشغولة المال منصرفه النفس عما عكس أن أسط لها من حديث . وما ذاك ؟ قلت مقنصدة متعملة مصصرة أن إنما أتحدث لأعترف عما سأتى من الأمر لم أتعود يا سيدتي أن أحكي على حديجة شيئاً أو أكنم من دواها سرّاً ، وما يسمي بل ما أستطيع أن أني معها مستأثرة بعلم ما أعلم طابوبة عنها مسعاى عندك وستعلم حديجة من غير شك أن هذا الأمر الذي يدنى فيه قد آمن وعدل عنه ، وسكون له في نفسها أثر حاد ، ما أشك في ذلك . ولست آمن نفسي حين أحارب ما أحب على من تسلتها ونعزيتها أن أروح لها بعض الحديث والخبر كمن الخبر في أن أتعمل الرحيل . وما دام الله قد قصي على الشفاء فلا بد من الإدعاء لما قصي الله . قالت : وأين تريد أن ندهي ؟ قلت لا أدري ! وإنما يجب أن أذهب أولاً ، فأما إلى أين

شيء مأسيتيه بعد ذلك . . !

ولم يرتفع صبحي بعد حتى كنت حيدة عن دار المأمور قريبة منها مع ذلك . فخطت ما يكتب ما يكون من هذين الأسرتين اللتين لم تنصل سهر الأسسب إلا لتفصع . ولم تشأ سهر لودة ولا لتستحيل إلى عداه أو شيء شبهه لعداء ولم أحد في ديت مشقة ولم أنكلف فيه عناء ، وإنما تحولت من دار إلى دار . وفصيت يوماً أو بعض يوم عند هذه المرأة التي تحدثت عنها في أول هذه لقصة ، عند رنونة تلك التي عرفتها في بيت العملة وقصصت من حديثها ما قصصت .

أقلت عنها نحو الظهر . فالتفتها قائمة تكيل بعض ما تكيل من الخب ، وأمامها سواد يشرب منها هذه تشرب القمح ، وهذه تشرب ليرة ، وهذه تشرب لنول . هذه تشرب نقداً ، وهذه تشرب نسيئة ، وربوة نحنكم في هذه وتلك صائحة مسرفة في الحركة ، لا يستقر لسانها في فمها . ولا ستر وجهها أولاً يستفر ما يختص عليه من الصور ، وأشكال . فهي عذبة حياء ، وباسحة حياء ، وهي تفعل بعينها وشفتيها وحاجبيها الأفاعيل وتدل بها على ما قد يعجز الكلام عن أن يدل عليه ، وهي تسب هذه حادة وتسب هذه مازحة ، وهي تلمح حياء وتصرح حياء آخر ، وهي عصي في ذلك ولسوة يسمع لها راصيات عنها معجبات بها ، مشاركات لها في بعض ما تقول وفي بعض ما تأتي من الحركات ، وفرد من شباب المدرسة قد اجتمعوا عبر بعيد يظرون ويسمعون ، ثم يسادون فيها بينهم أحاديث فيها الدعابة والرمص . وفيها اللفة والإعجاب .



فما رأيي ربوبه لم سكرني ، ولكنها لم تنس في الزمان .  
 نظرت إلى من الرأس إلى القدم ، ثم قالت في صوته : هات  
 دى تفديس . لقد بعد العهد بك مد الثقبان بيت عمدة ، ولكي  
 كسر أسطرك ، وما شككت في أنك ستأين إلى هذا بيت مستقيم  
 مني هذا العام . قلت : فهل أسألك الودع ؟ قلت : وما سررت  
 لعل الودع قد أسأني من أمرك عما تعلمين وما لا تعلمين .  
 هذه نمره من فوقنا فتخص من حقيقتك وأنت نحي . فأورع لك عد  
 حسن . ولا تحصل الطعام إن كنت حائفة من وقت العدة ، لم يجر بعد  
 وإن كنت أقدر من أمرك أنك لا تحصين بالدمت فما حصل بالصعاب .  
 فما أرى إلا أنك تأكلين في كل وقت هذا شأنك أيها الفتيات شعب  
 سطوكن أكر ما تشغلن بأى شيء آخر ومن سرور لعلكن  
 تشغلن .

فقطعت عليها حديثها بالانصراف عنها والتصعيد في السلم إلى امره  
 التي دلتني عليها ، ولكنها نعتني مع ذلك بالحرية والدعابة ، وأحدثت  
 تقول : امرئ ، امرئ ، وحدي في الحرب ، إن أدنيتك النقيبتين الريشين  
 لا تستطيعان أن تسمعنا لما ألقى من حديث . إنك تحافن من امرار الوجه  
 واضطرابه لن تحدعيني وإن استطعت أن تحدعي عيري ، فإنك لتحيين  
 هذا الحديث وتخوضين فيه وفي شرمه مع أنراك من الفتيات ، ولكنكن  
 تصنعن الحشمة وتكلفن الحياء . على أنها لم تمض في هذا اللغو إذ لم  
 تأسر استماعي لها وانصراني إليها فصت فيما كانت فيه من بيع وكيل ومن  
 دعابة بالوجه واللسان .

وهرعت لي بعد ساعة ، فأقبلت على هادئة باسمة ، تسألني عن أمي  
 وأختي وأجيبها عن أسئلتها عما أريد ، فتصدق ما تصفق وتكذب ما تكذب  
 ثم قالت : وأنت الآن تريدان العمل ، فأين تحبين أن تعملين ؟ وكيف  
 تريدان أن تعيشي ؟ إن لك من حسنك هذا الحميل ، ووجهك هذا  
 الوسمى ، ومطرك هذا الذي يسحر الشبان ويغلب عقول الرجال ،  
 ما يكمن لك حياة فيها ثروه وعى ، ولها نعيم وترف ، وفيها لذة ومتاع ،  
 وفيها تسلط وسيطرة وامتنعاف وعش بحول الشباب والشباب . قلت  
 ممصة : دعيني من هذا الحديث ، ولست أريد منك شيئاً ، وما أقبلت  
 استمعيت على شيء . وإعما ألمت بك بحية لك قبل أن أنرك هذه المدينة  
 فإن عها مرحلة . قالت وقد أدارت عينها وأصغت على وجهها شكلاً  
 مصحكاً نمره السحرية ويشيع فيه التكديب والاستهزاء ، وأرسلت من  
 لها شيئاً سكرأ أنعته بشعر سكر ما أشك في أن انساب الخضمين  
 غير بعيد قد سمعوه فتصاحكوا له ، وانتهى إليها مصحكهم حيث ك .  
 مرادها مرحاً ونشاطاً ، وملائي حرياً واستحياء ، قالت : لا تراعى لا تراعى ،  
 فلن أعرضك للبيع كما كنت أعرض هذه الحبوب آنفاً ، ولن أكرهك  
 على ما لا تحب ، ولكني أعرض عليك ما عدي . فأنت تكرهين هذه  
 الصاعقة أو تظهرين كرهها الآن ؟ فعلى غير هذه الصاعقة ، ولكن  
 نبي يا استي أنت راحمة إلى فطالة مني ما ترفضين الآن . لست  
 الأولى ولن تكوني الأخيرة . تريدان عملاً كله جد كهذا الذي كنت  
 فيه عند المأمور ، فلم تركت ست المأمور ؟ ولكن هذا من أسرار .  
 وإن لم يكن بحيث أنالك مني أمهات من أمثالي من ، فقد أحب أن

أعلم من أمرك جليه وحيه لأوصي بك عن علم . أخرجت مارة ؟  
 أم خرجت لسوء العشرة ؟ أم خرجت للكذب ؟ أم خرجت لكثرة الصياح ؟  
 أم أغضبت مبدك ؟ أم أغضبت مبدك ؟ أم أغضبت بنت الأمور ؟  
 أم أغضبتهم جميعاً ؟ وكيف خرجت من هذا البيت في هذا الوقت ؟  
 وهل تعلمين أن في المدينة مأمورين أو يثنين كبيت المأمور ؟ وأنت  
 تخرجين في الوقت الذي يستعد فيه البيت للأفراح والتبالي الملاح ،  
 وتترلين عما كان يحق لك أن تطعمي فيه من العطايا والهبات ! فليس من  
 شك في أنهم كانوا سيمنحونك كسوة فاخرة . وليس من شك في أن كثيراً  
 من النفد كان سيقع إليك من هذا ومن ذاك ومن هذه ومن تلك ، فكيف  
 تركت هذا كله ؟ أتركته راضية ؟ ولماذا ؟ أم أكرهت على تركه ؟ ولماذا ؟  
 تكلمي ! إلى لا أحب الغموض ، ولا أطمئن إلى الأسرار : ولا خير في  
 النسخ والإباء والكتمان ، فما تخفيه اليوم سأظهر عليه غداً وسأظهر عليه  
 قبل أن تعيب الشمس ، ولست برنوبة إن خفيت على أسرار فتاة مثلك  
 لم تلح العشرين ، وأنا أعلم من أمر هذه المدينة وأسرار أهلها وأحار  
 الأسر التي تقيم فيها أو تفقد عليها أو ترحل عنها ما أعلم . تحدثي ! كيف  
 خرجت من بيت المأمور أو كيف أخرجت منه ؟

وأمام هذا السيل المنهر من الحديث ، وأمام هذه الأمثلة الملتحة  
 وهذا الحرص الشنيع على الاستطلاع واستكشاف الأسرار ، لم يسمني  
 إلا أن أهض وأعمد إلى حقيتي فأحملها وأمسى نحو السلم ، ولكنني لم  
 أكد أبلعه حتى رددت عنه رداً ، وحتى كانت حقيتي قد خطفت مني  
 خطفاً ، وحتى كانت زنوبة قد أحاطتني بفراغها المكرنين ، وأخذت

تلح على بالصم والتخيل تهدئي وتعرضاني ، وأنا لذلك كارهة أشد  
 الكره ، وعلى ذلك ساخطة أشد السخط ، ولو استجبت لنفسى لصحت  
 منحلة طالة العوثر ، فقد أخذت أمقت نفسي وأزهدتها ، وألغيت هذه  
 اللحظة التي خطر لي فيها أن آوي إلى دار هذه المرأة ربنا أمي . أمري  
 بعض الشيء وأدبر لي عملاً أمضى فيه .

ولكن رنوبة ملحة على بالرفق والملاطفة . وقد خبت صوتها وحذت  
 حذيتها ، وأحدثت تحدث إلى بأمور ليس بينها وبين ما كما به صلة ،  
 كأنها أعرضت عن كل ما من شأنه أن يسوقني أو يروضني أو يقتني عن هذه  
 الدار التي اقتنعت زنوبة بأن لا بد من أن يطول فيها مقامى أياً أو أساميع .  
 ثم أنظر فإذا نحن قطعنا وقتاً غير قليل في حديث هادئ فيه الحد  
 وبه الهرل ، وإذا أنا آنس إلى هذه المرأة وأطمئن إلى ما أحسن من  
 عظمها ، وأنظر فإذا حياتنا قد مضت في هذه الساعات يسيرة قد زال  
 منها التكلف ، وإذا نحن قد نعدينا معاً ، وإذا كل واحدة منا قد أخذت  
 تحدث إلى صاحبتها في شيء من السذاجة والثقة غريب ، وإذا نحن  
 مستحصر آلامنا وأحزاننا ، وإذا كل واحدة منا تستكشف في صاحبتها  
 من وراء هذه الصورة الطاهرة التي يعرفها الناس صورة أخرى خفية من صدر  
 لنفس ونماتلاً مستتراً من تماثيل الشقاء ، وإذا كل واحدة منا ترفق  
 لصاحبتها أو تتخذ الرثاء مطهراً من مظاهر الرثاء لنفسها ، وإذا نحن  
 مشرك في البكاء وتعاون عليه كما كنا نشترك منذ حين في الضحك  
 ونسبح إليه . ولم يكده بنصرم الهار ويقل الليل حتى كانت الألفة بيننا  
 قد انتهت بنا إلى هذا الطور الذي يطمئن فيه الإنسان إلى الإنسان وإن

أحفظ شيء من الاحتياط . فلم أظهر دونه على سري . ولكي  
أماها بأن أحتي قد قصت في العرب ، وزعمت لها أني إنما خرجت من  
بيت المأمور في إثر معاصية كانت بيني وبين الخدم ، ثم لم تظهر بي  
كنت أراي أهلاً له من الإنصاف . وقد سمعت مني ما أقول وهي لدى  
التكذيب أقرب منها إلى التصديق . ولكنها تحسنت الحداد والإلحاح فيه ،  
وأظهرت الرأفة لي والعطف على ، ووعدني بأنها ستعقد لي عملاً شريعياً  
مريحاً إذا كان العد . وأملت على أن أقضي الليل معها وقد سمعت ،  
وقد أنفقنا جزءاً غير قليل من الليل في مثل ما أفضنا فيه النهار فلما  
أصبحنا غابت عنى ساعة أو نحو ساعة ، ثم عادت إلى مهلة مشرفة  
الوجه وهي تقول : لقد وجدت عملاً ما أشك في أنه سيرصيك . متعلين  
حيث كانت تعمل أملك قل أن نرحل عن المدينة في بيت فلان ،  
أنذكرين اسمه ؟ أنعرفيه ؟ إنه رجل من أصحاب الرأف والبسر ، وقد  
لا تجلين في داره مثل ما كنت تجدين في دار المأمور من الرأف ،  
ولكنك ستجلين عنده ساعة وبسراً ، ودعاً في الخلق ، وتيسراً في  
المعاملة ، فوجه كرمة النص ، وبناته صالحات لم يصدعن الذهاب إلى  
المدارس ولا استقبال المعلمين . فهنا الرجل أمير بضم سانه على هذا  
الساد ، ويرسل أبنائه كلهم إلى القاهرة ليتعلموا فيها وليصيروا فيها  
بعد موظفين كباراً كالمأمور والقاضي والمهندس وإذا أقل الصيف وعاد  
هؤلاء الشبان من القاهرة امتلأ البيت فرحاً ومرحاً ، وأصحت أيام  
الأسرة كلها أعياداً ، وازداد حظ الخدم من الرعد والسعة ولين العيش .  
وأنا كثيرة الاختلاف إلى هذا البيت منذ استقرت هذه الأسرة فيه منذ

أعوام وأعوام ، وقد ربيت أبنائها وبناتها ، وقد تبنيت منهم واحداً  
بعبته هو الآن شاب نقيب سيكون بعد قليل موظفاً كبيراً ، وهو يعرف  
لي هذا الحق ويحبني ويكرمني ويؤثرني بالخبر والمعروف ، قلت :  
ركبت تسيه ؟

قالت وهي تضحك . أنتهلين هذه العادة ؟ لقد أخذته حين كان  
وليداً فأدخلته من بين ثوب وبيني ، أدخلته من حبي وأخرجته من تحت  
دلي ، فأصحت كأني والدته ، وأصيح لي عليه حتى الأمهات وله على  
حق الأبناء متعلين في هذا البيت وترصين ، وسأراك كل يوم  
إذا أصحت وسأراك إذا أمست ، فليس بين هذا البيت وبيننا  
إلا خطوات ، وأنا أعمل فيه ساعات من نهار . وقد تحدثت عند لي  
رة البيت معرفتك وعرفت أملك وأحتك وفلتك راضية مسرورة ،  
فهل ما فقد تركتها على أن أعود بك إليها بعد لحظات ولست  
أحس عليك أنها كرهت بعض الشيء استحداثك بعد أن خرجت  
من بيت المأمور لما بين الأسرتين من مودة ، ولكنها لم تطلب نقداً عن  
تركك عرضة لما يتعرض له الفتيات من الشر بعد أن عرفت أملك  
وحدثت عشرتها . فهل بنا عهد تناح لنا أوقات طوال يكثر فيها بيتنا  
الحديث .

وهبت معها وليس في نفسي ريب في أنها قد سمعت لي وأخطأت  
في النصيح والود ، وفي نفسي بعض الأمل في أنها متعيني يوماً ما على  
تحقيق ما أريد .



و حرق منعى أو كاسمى بين من فى الدار من اناس وما فى الدار من  
الحيوان على خلافه ، و مدحاح مصل يحصى حيث يشاء ويستقرها  
ثم يستقر هناك حاملاً معه أهله وآثاره ، ولا يحصى من إلا حجرة  
أو حمرتان ولا تحميم إلا فى مشقة ويكفى للجهد . وقد لا يكره أهل  
الدار إذا اشتد القبط أن ينقو ماءهم تحت السماء قرصاً من القرة  
أو الخموسة أو ما إليها . يصبون السيم حيث يحلون ، لا يتكفون  
فى ذلك ولا يتصمون ، ولا يحمون فى محالطة الحيوان حرجاً ولا أدى .  
هى الحياة السهلة اليسيرة لعبة همت أن تتحصر وأن تترف ، فأخذت  
من الحصار والترف محط ، ثم لم تستطع أن تتقدم فاكحت بما أحلت ،  
ووقفت عند حد من الحدود لا تعدوه .

ولم أكد أنى ربة البيت ومن حولها بانها وخادماها يعملون وتعمل  
معهم ، يتحدثون وتشاركهن فى الحديث ، حتى أحسست أنى  
سأجد فى هذه الدار راحة وتعباً ، وسألتى فيها تعباً وبؤساً . وقد صدق  
حسى ، سمعت فى هذه الدار وثقيت . نعمت بهذه السداحة التى  
ردتني إلى شئ يشبه حيانى فى أقصى الزيف ، وخطبتي بأهل الدار  
كأنى واحدة منهم ، وألعت ما بين السادة والخدم من الفروق أو كادت  
تلتبه . ولكن أى حياة يموت فيها العقل أو يأخذ شئ كالموت !  
لم آسف على ما فقدت من لرف ، ولعل لم آسف على ما فقدت من  
صحة حديجة ، فقد امتياست من صحتها واتحدتها سواء أردت  
أم لم أرد . لعسى حصي ، حررتها وإن رعت أنى كب أدافع عنها ،  
وطلمتها وإن زعمت أنى أفدتها ، وانتصرت عليها وإن رعت أنى

وأقلت معها على بيت من بيوت الريف هذه شئ يظهر فيها الرأى ،  
ويحس أهلها سعة العيش ، ولكنهم على ذلك لا يأخذون من ترف  
الحصارة إلا بأبصره وأهونه ، تعصظين بما ألقوا من هذه الحيرة الربعية  
التى لا دقة فيها ولا رقة ولا افتنان فى إرضاء الدوق ، والتى تكره اسظام  
وتتعم منه ، وترى فى الترتيب والتسقي تكلماً وجهداً لا خير فيهما ولا  
حاجة إليهما . بيت من هذه البيوت التى لا يكاد يدخلها الداخل حتى  
يحس أن أهلها ميسورون ولكنهم فلاحون كما يقال ، فالمتاع كثير ولكنه  
مهمل مضطرب لم ينظم ولم ينسق ولم يهيا ، وإنما حمل إلى الدار ثم استقر  
فيها كما استطاع أن يستقر .

والفرق فيها ملغى أو كالملقى بين حمرات الاستقبال للسيدات وحمرات  
الاستقبال للسادة ، مل بين حمرات الاستقبال وحمرات الطعام ،  
إنما يستقبل أهل الدار حيث توجد المقاعد والكراسى ، ويأكل أهل  
الدار حيث يتفق لهم أن يأكلوا ، إلا أن بطرقهم طارق أو يلهم صيف  
فيكون الطعام حيث يكون الاستقبال ، ثم يكون نوم الطارق أو الصيف  
حيث يكون الطعام والاستقبال أيضاً .

فى البيت مقاعد وكراسى ، ولكن أهل الدار يؤثرون الجلوس على  
هذه الحصر والأبسطه قد ألفت على الأرض إلقاء . فإذا طرق الطارق  
أو أقبل الضيف عرفت الكراسى والمقاعد أن لها فى البيت منفعة وعملاً .

لم آسف لما فاتني من محبتها فلم يكن من ذلك مدّة ١ ولكن أي آسف وأي  
حزن وأي لوعة وحسرة ، وأي ندم يذيب القلب ويملأ النفس كأنه  
ويلاً هذا الذي كنت أحده إذا أصبحت وأميت وقضيت الليل والنهار  
بين عمل باليد أو حديث مع أهل الدار لا متاع فيه للعقل ولا لذة فيه  
للقلب !!

أين القراءة مع جدبة . وأين القراءة متعة ؟ أين هذه الكتب  
المرية وهذه الكتب القربية التي كنت أتمنى معها أكثر نهار ونظراً  
من الليل قارئة أو متعة عما قرأت أو تنمية لاستشاف القراءة ؟ لقد  
تركت هذا كله في بيت المأمور ، وأقبلت إلى بيت لا يقرأ من أهله  
نقط ، إلا رب البيت ، فإنه يقرأ إذا أصبح . ويقرأ إذا أمسى ، وأنا  
أسمع في الصباح والمساء ، وأكاد أحيط عنه ما يقرأ . وما يصيبي مما  
يقرأ ! إنما هي أوراده وأدعيته ، ودلائل الخبرات . وأين أنا من هذا ،  
وأين هنا مني !!

ولقد خرجت من بيت المأمور لم أستصحب كتاباً ، وما كان  
لي أن أستصحب كتاباً ، وإنما كانت كلها كتب الخدمة . ولقد  
سألت نفسي ألف مرة مرة أين يمكن أن أطلع بهذا الكتاب ؟  
فليس في هذه المدينة من مدد الريف كتب تناع إلا هذه التي بعرضها  
الطوائف في أيام السوق أو في يوم الخميس من كل أسبوع ، بعرضها  
في السوق ويمرّون بها على الدور ، وليس لي فيها أرب ولا منفعة ،  
إنما هي قصص لا تعجني ولا تروفي وسحر لا أحسه ، وصلوات  
دينية لا أعرف منها قليلاً ولا كثيراً .

أين هذه الكتب المترفة ذات الطبع الجميل والحلّة الأنيق ، هذه  
التي تأتي من القاهرة والتي كنت أحد اللذة والمتاع حين آخذها في يدي  
أو حين أطر إليها ؟ أحبل بيبي وببيها آخر الدهر ؟ أقضي على  
أن أورد كما كنت فلاحاً من سات الريف تنفق مهارها في هذا العمل  
الآتي الذي لا يكاد يفرق بينها وبين ما يحيط بها من السات والحيوان ؟  
كلا ... !

هؤلاء فتيان الأسرة قد أقنوا من القاهرة ، وقد رأيتهم يفرغون  
حقائبهم فما أكثر ما رأيتهم يستخرجون منها من الكتب ذات الأحجام  
المتنوعة المتباينة ، منها الصغرى ومنها النحيف ، منها متن الطبع ومنها  
ما أهمل طبعه إهمالاً ، منها ما حط في عناية وما ترك على حاله التي خرج  
بها من المطبعة ! ولكن أين من هذه الكتب ؟ وكيف السيل إلى النظر  
فيها ؟ بل كيف السيل إلى الوصول إليها ؟ ها حدثني نفسي عما  
لم تحدثني به قط ، فأبكرت حديثها ببعض الشيء ، ولكنني لم أليث  
أن عرفتته وقتله واطمأنت إليه ثم صممت عليه تصميماً . وأي بأس في  
أن أحتلس الكتاب اختلاساً فأطرق فيه وقتاً طويلاً أو قصيراً ، ثم أرده  
إلى مكانه لم يمسسه بأس ولم يصبه مكروه ؟ أسرقة هذه ؟ أإنم هذا الذي  
أما مقدمة عليه ، إن وجدت إلى الإقدام عليه ميلاً ؟ والله بشهد  
ما سرق ولا فكرت في السرقة ، وما اختلست ولا فكرت في الاختلاس  
إلا هذه المرة والله بشهد ما لمت نفسي على ذلك ولا أشفقت عليها  
من تورط في الإثم أو تعرض للعقاب ، وإنما قصيب أسايغ غريبة  
فيها مهاره لم أكن أعرف نفسي منها خطأ ، وفيها خوف وإشفاق ،

وفيها بين ذلك لذات لن أنساها . فكم حدثت أهل الدار ، وكم تغفلهم ، وكم اختلست الكتاب من هذه الكتب فأحبته بيني وبين ثوبي . ثم اتعرت به إلى حيث اتخذت لعمى مائماً لا أحتش أن يمس عليّ فيه ، ثم أخذت أقلب صفحاته وألقى عليه نظرات طويلاً أو قصاراً تعريفي به أو تصرفني عنه ، وأنا أحد هذه الضاحكة ولهذا الخوف ولهذا القراءة لذة غيرت حياتي تعبيراً وكادت تصرفني عن هذه الخواطر التي كانت تصاحب نفسي وتملأ قلبي وترسم أمام عيني بيت الأمور وبيت المهندس صورة حديجة وصورة هذا الشاب . نعم ! كادت هذه الحياة الحليمة تصرفني عن هذا كله ، لولا حديث سمعته وأنا أطوف بألوان الطعام وأقداح المساء على سادتي في ليلة من هذه الليالي . سمعت حديثاً عن الأمور اضطربت له نفسي واضطراباً ، ولولا أنني اعتقت جهداً عيباً لظهر هذا الاضطراب ولسقط من يدي ما كنت أحمله من آية ، فقد نقل الأمور من المدينة إلى مدينة أخرى في أقصى الأرض مما يلي البحر ، وكان هو الذي طلب هذا الثقل وصلى فيه وتوسل إليه بفلاں وفلاں . والناس يهيمون بأنه إنما فعل ذلك ليفر بابته من جوار المهندس الذي كان قد حطها ثم قطعت الحطة . والناس يختلفون ، فهم من يرى أن المهندس هو الذي قطع الحليمة لأشياء حدثت له ، فمهم من يزعم أن الأمور هو الذي رفض الحطة لما تبين من سوء سيرة هذا الشاب .

سمعت هذا واضطربت له ، وكطمت عواظي وأكرهت نفسي على الترام الاس والهلوه ما اضطرتت إلى غفلة ، فلما أتيت في المرة

أرسلت نفسي على مسجيتها فقصيت ليلة ساهرة حائرة مفكرة محرونة ولكن الصباح لم يسرحني أسفر معه للنفس أمل لا يخلو من حزن ولكنه أمل على كل حال ، من أجله أفقدت الأمر على خديجة ، ومن أجله خرجت من بيت الأمور ، ومن أجله نقيت نفسي في هذه الدار . فقد حلا الحول في المدينة ، وأصبح من المعكر أن تتصل الأسباب بيني وبين هذا المهندس الشاب ، وأصبح من الممكن بل أصبح مما لا بد منه أن يكون الصراع بيني وبينه ، فليعلم بعد وقت قصير أو طويل أذهب دم هنادى هدراً أم لا يزال على هذه الأرض من هو قادر على أن يظمر له بالثأر ويثني نفسه بالانتقام ؟

## ٢٠

وقصيت بعد ذلك أسابيع حائرة أشد الحيرة ، مرتبكة أعظم الارتباك ، تضطرب الخواطر في نفسي وتختلف وتردحم دون أن أقدر على تنظيمها أو أحدي منفذاً منها إلى هذا الحاضر الذي كنت أطلبه وألح في طلبه وأريد أن أطمئن إليه . فلم يكن بد من أن أتصل بخدمة هذا المهندس الشاب ، ولم تكن السبيل إلى ذلك ميسرة ، فأنا عاملة في هذه الدار لا أجد من أمها ما يزعجني عنها أو ما يضطرنني إلى مراقبتها ، وسكية عاملة عند المهندس ، لا تجد منه ما يؤذيها ، ولا يجد منها ما يصرفه عنها أو يزهده فيها .

وكنيت أحهد نفسي أثناء هذه الأسابيع لإجهاداً شديداً متصلاً



ألمس محرماً في من هذه الدار وغرماً لسكينة من تلك ، وأريد مع ذلك أن أحتب الشر والإساءة ما وجدت إلى أحدهما سبيلاً وكثيراً ما سمعت مائش يتحدثون أثناء العشاء أو أثناء العشاء عن سادته يسعى فيها كرمه ، وكان موطئاً في إقامته بعد ، وكان يريد أن يذهب أهله أن يتنقل إلى المدينة التي يحب فيها يعيش من أهله سعدت موطئاً فكان يسعى في أن يبادل موطئاً في المدينة بأحد كل منهما مكان صاحبه وكان التراضى قد تم بينهما بعد أحد ورد وبعد معنى وإيجاج . وكان يسعى متصلاً في أن يرعى الحكومة عن هذه الدالة . وكان الأمل يدنو حيناً من هذه الأسرة وبعد حيناً آخر ، وكان رب اسب . به حرصاً على تحقيق هذا الأمر أشد حرصاً وكثيراً حدث فيه ، وكان تصور أن يذهب بعد عاد إليهما بعد ظهره في أقصى الصعيد ، وكانا يمشيان به في أحاديث عرفة ، يستطعن وفي الآث وبدا كرن ما يجب أن يشترى من الخبز ، وسعدت به سعدت من نظام الدار إذا أقل هذا الشاب الذي تعلم في المدارس ويعود حياة البرق والشمس ، والذي يكلم الفرنسيه ويأمن في الناس . ولا يأكل كما يأكل أهل بدار حالاً عن الأرض إلى هذه المائدة مستحصه ، علب هذه الضيعة الحاصية اليصاء في الأيام لعديده ، وسبب ملك الصبب القصره التي لم يكن يوضع حتى يسرع إليها الصبا والشار سكينة قراءه ما كان علب من بعض القوش قل أن يرضى أحدهم رصاً فيحنى هذه القوش إخماء

هم ولم يكن يأكل بيديه كما يأكل أهل مصر . وإعما كان

مصطع هذه الأدواب التي يصطعها المرفون وكان سبه البيت وسيدته يتحدثان بذلك مكررين له بأطراف الشهما معجيين به أشد الإعجاب في قلوبهما . وكان الشان من أمائهما سمعون أحاديثهما هذه ويعرفون سخطهما بظهور وإعجابهما أحياناً ، فيسمون صامتين من أقام أبوهي . فإرا يعرف لثأه امتلأ أفواههم بالصحك والطمع أحسنهم بالعداه . وأهمهم نسمع هم ونسهر إليهم ، مكررة عليهم بطرف يسار معده هم في أعماق النفس . وكنت أن أسمع الأحاديث كلها وأمرها وأضرب عنكر فيها . فهد من سبيل إلى أن تم بين سكينة وبيبي مددته كهده التي بردت . ثم من هذه الدار التي في أقصى الصعيد وهذا الموطئ القمطي التي في أدنى الأرض ؟ !

وكيف كيف السبيل إلى تحقيق هذه المادلة ؟ بل كيف السبيل من حرصها على سكينة أو النحدث إليها فيها ؟ بل كيف السبيل إلى تعيل هذه المادلة لسكينة ؟ وما الذي يزعمها عن منزلها هذا الذي ظمئن إليه وسود فيه لا تكاد تدعى لأحد ولا تكاد تلقى من أحد ما ينقاه الخدم من السادة ؟ ما الذي يزعمها عن هذا المنزل ويحملها على أن تنتقل منه إلى هذه الدار التي لا حظ لها من ترف والتي ليس فيها هذا المهندس الشاب ؟ وهب سكينة حنت واطمأنت إلى مثل هذا العرض السخيف ، فكيف يكون تعليل ذلك لبيدها ؟ وكيف يكون تعليل ذلك لصادق ؟ كلا ! هذه أحلام ليس إليها من سبيل . وهما أجنده وهما أحاول فإن الشر لا ينال إلا بالشر ، والإثم لا يدرك إلا بالإثم ، ولن أبلغ هذه الغاية التي أتمنى إليها حتى أفنحم في سبيلها عمرات

## وأقترف في سبيلها آثاماً .

لا بد إذن من بعض الشر ، ولا بد من أن أكر حتى أقصى عن هذه الدار ، ومن أن أكيد حتى تفصى مكيدة عن بيت المهندس الشاب . وما أسهل المكر حين ثبأ له النفس ، وما أسهل الكيد حين يطمئن إليه الصبير ! ومتى عجزت المرأة عن أن تنج من المكر والكيد ما تريد ؟ لن أجد في تحقيق ما أريد جهداً ولا مشقة إذا رصيت عمى ما لا بد من أن نرصاه من الشر . واستباح ما لم تكن تسبحه من الإساءة والإيذاء .

فأما مكيدة فأمرها مبسور . وإنما هي ريادة للناس ورسوخ له بعض المال ، واتفاق معه على أن يفسد الأمر على هذه عصابة ما وسعه ذلك . حتى إذا انتهى منه إلى ما أحب وأحرحت سكة من بدر سعى إلى زقوبة من قبل ميده يلتصق خادماً ، وبومئذ ...

وأما محر حتى أبا من هذه الدار التي أعين فيها ليس أسير مه ولا أهون . بعد دحيت دار ولم تكن في حاجة إلى . وإنما قضى أهلها وفقاً لي ، اعتصماً على وإحساناً إلى ورعدة لعهد أي . فأن عدم صيف ، استطيع أن أرحل متى شئت . ونستطيع أن أقوم ما أحببت . عن أن ظروف الحياة لم تضطرن إلى أن تكلف الاستعداد في ارجح والتماس العلل والمعادير ، وإنما قصت بأن أخرج من هذه دار إحراجاً وأسد ما بدأ . وإلى لأذكر قصة ذلك الآن فأسمها انتساباً منزه العيان وأحب . وكثيراً ما ذكرت هذه القصص قل اليوم فاملاً قلبي حياً هؤلاء الناس وحياً إلى هذه السداجة التي كانوا يعيشون فيها والتي

كانت تصور لم أمورهم كلها في صورة الحد الذي لا يشبه جد ، والتي لا يتحدث بها الناس في هذه الأيام إلا صحكوا منها ساخرين إن كانوا قساة القلوب ، وانسموا لها عاطفين إن كانوا يقدرون الذكرى وعيون الحياة التي لا تكلف فيها ولا وياه ... !

كان شباب الدار يعكفون أكثر النهار على كتبهم هذه التي أقبلوا بها من القاهرة ، يقرءون فيها قراءة متصلة لا يكاد يصرعهم عنها شيء . وكثيراً ما كانوا يدعون إلى طعامهم فيسطون ، وكثيراً ما كان إبطاؤهم يغيظ أباهم ويمثلوه بهم إعجاباً ولم حياً . وكان أهل الدار جميعاً ، ورثها أولم ، مقتنعين أشد الاقتناع بأن هؤلاء الشباب إنما كانوا يعكفون على هذه الكتب حباً للعلم ولإثارة للدرس وجداً في التحصيل ، وكانوا يتحدثون فيما بينهم بنشاط هؤلاء الشباب الذين لا يكفهم العمل طول العام الدراسي في القاهرة ولكنهم يعملون أثناء الراحة ويحرمون أنفسهم لفظة الرياضة والاستمتاع بشيء من العيم . وإنما هي الكتب إذا أصبحوا ، وهي الكتب إذا أمسوا ، وهي الكتب إذا آت لهم أن يقلوا بعد العناء . ما أشد فتنة العلم هؤلاء الطلاب الأذكياء الذين يحبونه أشد الحب ويأخذون منه بأعظم الخط ، ويريدون أن يبقوا فيه وأن يطعموا بالشهادات في غير إبطاء ، وأن يكونوا موظفين بعد ذلك يتقاصون المراتب في آخر الشهر ويؤدونها كلها أو بعضها إلى أهلهم !

وكان أهل الدار يحلون في هذه الأحاديث لذة ، ويطبقون خيالهم فيها إطلاقاً . وكانت سيده الدار تتمثل هذا كله وتنوّل في تحقيقه وتعجيله إلى الله بهذا الدعاء السادح اليسير الذي تجري به

ألسة أمثالها من أهل المدن والقرى ، وتكثر في الوعد بالنور المختلفة لهذا الشيخ وذلك الولي .

وكان رب الدار لا يكف عن التحدث بشايط أبنائه وعكوفهم على الكتب أكثر النهار وشرطاً من الليل ، حتى لقد كان ينيظ أصحابه ويملا قلوبهم حسداً ، ثم يتحدث بذلك إلى زوجه فيملأ قلبها حوفاً من الحسد والحاسدين . وكان هذا الرجل الطيب الكريم يحد لدة في أن يجلس أوقت من حين إلى حين ويشرح بمرصة حتى يغيب فيها أسأوه عن هذه العرفة التي رصت فيها الكتب رصاً فيسل إلى العرفة اسللاً كأنه المص ، ويغيب أسم هذه المائلة أو هذه البرائد التي نظمت عليها الكتب نظيماً ، ويلقى على هذه الأسفار بطرات ملؤها الإكثار والإحلال ، وقد يمد يده في تحميط وحياط إلى هذه الكتب فيمسح مسحاً رقيقاً ويمسحها مسحاً يسيراً ، كأنه تتركها ويتمسك عندها ما يلتصق به ، الأولياء والقديسين إذا لقيهم أحياء أو زار مودوم أمواتاً .

وقد يدفعه حب هذه الكتب وكلمه بها وحاحته الشديدة إلى الاستطلاع إلى شيء من الجراءة ، فيأخذ كتاباً منها وينظر به ليحفظ عنوانه وليتحدث به إلى أصحابه إن خرج إليهم ، أو ليقرأ به سطرأ أو أسطرأ بعهمها أو لا يفهمها ، وهو يؤثر فيها بينه وبين نفسه ألا يفهمها ، وذلك أدنى إلى الإعجاب وأشد إمعاناً فيما ينبغي للعلم من العزاة والارتفاع عن عقول العامة والجهلاء ، وهو أدنى إلى ما ينبغي من الإعجاب هؤلاء الشبان الباشقين الذين يعرفون ويفهمون ويسمعون ما لا يعرف

أناهم ولا يفهمون ولا يسمعون . وكثيراً ما كان يظهر هذا الرجل مبلاً فيه كثير من الحياء والردد إلى أن يحدثه أسأوه معص ما يفرعون ويعطوه شيئاً من هذه الكور التي يملأون بها قلوبهم وعقولهم إذا أصبحوا وإذا أمسوا ، ولكنه كان شقيفاً دائماً لا يكاد يلمح لأسأته ببعض ذلك حتى يجد منهم تموراً وأزوراراً ، فيصطر إلى الصمت والرمسا عما هو فيه من جهل وحرمان . وكثيراً ما كان يتحدث إلى زوجه سحر العلماء وصهم بالعلم وإثارهم أنفسهم بلفاته وتمراته ، يتحدث بذلك مثلاً محروفاً أو ثائراً معصياً ، فتعزبه زوجه وتهدئه وترغم له صادقاً أو متكلمة أن العلماء إنما يحلون بالعلم على غير أهله إكراماً للعلم وإشفاقاً على الجهلاء من أن يشق عليهم ما يسمعون ، فيقبل منها ذلك أو يجادها فيه .

وكذلك كان هؤلاء الشبان وكثهم يمكن الإعجاب والتعديس من هذه الأسرة الساذجة . ولكن الدار اضطربت ذات يوم أشد الاضطراب ، وفقد فيها أو كاد يفقد كل شيء ، وقضى أهلها يوماً معصاً كله شر وبأس ، وأمل حائب وطن كادب . وكنت أنا مصدر هذا اللاء ، فكفرت بخروحي من الدار عما جيت من صيته ، وما كان أسعدني بهذا الخروج ! ..

ولم أكن أقل من صاحب البيت كلياً بالاسلال إلى عرفة الكتب والطر إليها والقراءة فيها ، بل كنت كما قدمت أتجاوز حظ صاحب البيت من هذا كله فأحطس الكتب اختلاصاً وأحسب بيبي وبين ثوبى ، وأحبو إليها في حيث لا أرى ساعات تقصر أو تطول ، ولكن كنت تمتلئ دائماً باللذة والمتاع . وكنت قد لاحظت كتاباً دميم المطر فييح الشكل ، ردى الطع والورق ، يعكف عليه هؤلاء الشبان عكوفاً منصلاً ،



يستبقون إليه استباقاً ويتنافسون فيه تنافساً ويشدد اختصاصهم فيه ،  
ثم ينهون إلى أن يتفقوا على أن يتداولوه فيما بينهم لكل واحد منهم وقت  
معلوم . فلدغت إلى أن أعرف هذا الكتاب وأتتبع ما يخفيه شكله  
الديم وطبعه الرديء وورقه الخثير وجلده المبتلل البالي ، من هذا  
السحر الذي تغلب هؤلاء الشباب ودفعهم دفعاً إلى الهالك عليه والتنافس  
فيه . وكثيراً ما التفت هذا الكتاب فلم أجده قريب المثال بين هذه  
الكتب المرسومة المروضة ، فتبينت أن هؤلاء الشبان لا يكادون يفرغون  
من النظر فيه حتى يخفوه إحصاء . فلم يزدني ذلك إلا كلفاً به وتبعاً له  
والخاسراً في البحث عنه . وأعلم ذات يوم أن هؤلاء الشبان مدعرون إلى  
الغلاء ، وأن العرفة ستخلو لي ساعات من نهار ، وأنى سأستطيع أن  
أبحث عن هذا الكتاب ، وقد أقسمت لأحدثه ولا أنظر فيه ولا أقضيه  
معه أطول ما أستطيع أن أقضي معه من الوقت .

وقد انصرف الشبان إلى ولعهم ، وتخصعت من أنفال ما كان على من  
عمل ، فاسللت مسرعة رشيفة مربعة الشاط إلى العرفة ، وحضيت في  
البحث غير قليل ، وإذا أنا أطعم بما كنت أبتغي . فباللهجة  
وباللبطة ، وبالسعادة وبالرصا ! هذا الكتاب بين يدي دميم  
الصورة قبيح الشكل خثير الورق رديء الطبع ، ولكن اسمه « ألف  
ليلة وليلة » . وأنا أقرأ فيه وأنا أمضي في القراءة ، وأنا أنسى نفسي وأسى  
مكاني . ولكن ماذا أسمع ومدا أرى ؟ هذا باب العرفة يفتح في  
غير احتياط ، وهذا رب امدار يدخل ! فقد كان مثل يتطر أن تحلو  
له العرفة ليقف من هذه الكتب موقف الإكبار ، ولينظر إليها نظرة  
التقديس ، ويحمد إليها يده ملاحظاً مداعباً ، ثم ليقرأ من أسماها وسطورها

ما يسر به أصحابه إذا خرج إليهم آخر النهار . ولكنه يراني أنصرف في كتاب ،  
وي كتاب لم يتعود أن يراه ! فهو يسألني ماذا أصنع . وما أنا وهذه  
كتب ؟ وأحاول أن أشرح له الكتب التي كنت أنصرف فيها ، ولكنه قد  
سرع فاحده من يدي ، ثم رحلني رحلاً عيباً وطردني من العرفة طرداً .  
على أنه لم يبق مقام في هذه العرفة ، إنما خرج منها بعد قليل  
ناراً ساخناً ، وأقبل على روحه في يده هذا الكتاب فأنقذه في وجهها  
بالبقاء ، واندد في غضب لا حد له وفي شتم لا ينهى  
ساحطاً على روحه لمسكية وعلى أسنائه اسنيس ، صائلاً عينا ندرأ  
متصلة بالكوارث والأحداث ، معنياً بها في عطف عيب مرة وفي حزن  
نيم مرة أخرى ، خيبة أمله في هؤلاء الأساء الذين كان يصبرهم بحين  
للعلم مؤثرين له متهاكبين عبيه ، فإذا هم أصحاب عث وفو وجود ،  
وإذا هم ينفقون وقتهم في قراءة هذا الهديان . ومن يدري ! لعلهم ينفقون  
وقتهم في هذا أثناء إقامتهم في القاهرة على حين يصر هو أنهم يحلون  
ويعملون ويحصلون العلم . وهو إذن إنما يجد ويكد ويبقى حبه وماله  
يمضي أساؤه في هذا السحب وفي هذا اللهو الآثم القبيح . وهم لا يصعبون  
وقتهم وجهدهم وحد أبيهم وكده وماله وأمله محسب ، ولكنهم يحرقون بيت  
أبيهم بأبيهم كأنهم يحفلون أن هذا الكتاب لم يدخل بيتاً إلا حربه تحريباً .  
ثم يعود الرجل إلى عرفة الكتب فيقف كل ما فيها تقياً ، وما  
يزال يبحث حتى يظفر بأجزاء الكتاب كلها ، ثم يعود بها متصراً  
ساحطاً معاً . ثم يمرقها تمزيقاً ، ولا يطمئن حتى يشعل فيها النار !  
وقد نقص يوم الأسرة كله فلم يذق الرجل ولا أهل الدار فيه طعاماً .  
وعاد الغيبان آخر النهار ، فلا تسل عما سمعوا ولا عما رأوا ، ولا

عن صمتهم حين صمتوا ولا عن قولهم حين قالوا . ولكن الشبهة الأولى والأخيرة فيما أظن هذا كله هي أني طردت من الباب طرداً . ورجعت إلى بيت زبوة وإلى عرفتها ، فقصيت فيها أماسيع أنشطر ما يجرى به القضاء ، وما تنهى إليه حيلة المستأني الذي خضع له الأحرار

## 71

« متعلمين إذا كان العدد يا أمة ، وستعلمين عملاً برصيك كما  
لم برصك عمل من قبله قط . لا تذكرى بيت المأمور ، ولا تذكرى  
بيت فلان هذا الذى دعوت الحماقة فيه إلى هذا الدب العظيم . متعلمين  
عملاً مريحاً فيه مال كثير ، وبعيم كثير ، ومتاع كثير متعلمين . . .  
متعلمين وستسعدون . لينى كث مكانك ، ليت مى نعود إلى حيث  
أنت من العمر . متعلمين وستعلمين . . ! »

قالت ذلك وهي مضطربة أشد الاضطراب ، منهجة أشد الانهاج ،  
يدفعها الفرح والمارح إلى أن تأتي حركات مختلطة فيها الرقص والتعز ،  
وفيها الحد والحزل ، وفيها الدعاء التي ليس بعدها دعاء والمجون الذي ليس  
بعده مجون . حركات على الوجه ، وحركات باليدين ، وحركات في  
الجسم كله مجتمعاً وفي أعضائه متفرقة . حركات هي إلى الحنون  
والاختلاط أدنى منها إلى المرح المعتدل الذي يصدر عن نفس مريحة  
وعقل متزن . ولم تكف زبوبة باضطرابها هي ، وإنما انقضت على  
انقضاء ، فقلتي وأهصتي وراقصتي ودارت في حول العرقة دوراناً  
متصلاً سريعاً حتى انتهت في وسعها إلى السقوط . كل ذلك وهي  
مندعة في حركاتها وأحاديثها ، لا تمكث في أن أقول كلمة أو ألق

بحرف أو آى من الحركات غير ما تربه قد امتحالت إلى جنية  
وأصحت العرق ميداناً لا يضطربها اغتلاط الذى لم يقف ولم يهدأ إلا حين  
أسقطها الدور وأسقطى معها على الأرض وحير أفاقته بعد قليل . .  
هذه استطاعت أن تتكلم كلامه العاقبة . واستطاعت أن أسمع لها

وَأَبْ أَهْمَ عِب . فَعَمِتْ أَبْ أَهْمَدَسِ فِي حَاجَةِ إِبْ حَادِم . وَهُنْ قَدْ  
أَرْسَلْ يَتَقَدَّمْ . نَيْبُ فِي أَبْ تَتَمَنَّيْ لَهُ هَذِهِ الْحَادِمَ ، وَهُنْ يَتَمَنَّيْهَا عَلَى  
دَمِ أَحْرًا يَخْتَفِ بِأَحْلَافِ الْخَادِمِ الْتِي مَوْدَعِ إِلَيْهِ مَعَ الصَّبَاحِ إِذَا  
كَرَّ بَعْدَ وَهِي مَسْجُودَةٍ فِي وَهِي مَسْجُودَةٍ سَبَّ . فَا أَكْثَرُ . فَعَمِتْ  
حَدَّ شَرِّ مَنِ حِدَمَ ! وَهِي أَكْثَرُ . فَعَمِتْ مَعَهُ أَحْرًا مَا قَدْ تَمَّتْ !  
وَكَيْفَ مَ يَفْعَلُ بِهِ يَوْمًا مَنِ الْكُفْرَ وَفَعَلُ . هَذَا مِثْلُ مَا فِي مَنِ حَالِ  
نُوحَةٍ . وَحَدِّ لَ عَمَدَ . وَرَجَا حَاجَةَ الْعَمَلِ وَهِي هَذَا يَدُ . وَأَعْلَمُ تَحَاجَاتِ  
سَبَابَ مَذْعَنِي سَيَكُونُ أَحْرًا مَصْرُوعًا . فَا تَتَمَنَّيْهَا إِلَيْهِ كَلِّهَا  
فِي هَذِهِ نَيْبُ وَنَيْبُ شَحْبِي . وَهِي هَذَا هَذَا الشَّابَّ الْمَتْرُوفِ الْعَمِي  
وَحَدِّ مَنِ رُفْقِي سَيَدُ الدَّارِ . وَأَبْ هَذَا يَتَمَنَّيْ حَدَمَ الدَّارِ مَا كُونُ  
وَحَدِّ حَاجَةَ تَتَمَنَّيْهَا الْفَتَقِ مَنِ نَيْبُ هَذَا الشَّابَّ وَهِي هَذَا إِنْ  
تَحَمَّتْ ! فَهِيَ مَنَاجِ مَنِ نَحْسِ وَفَعَلُ بِهِ وَفَعَلُ سَبَابَ عَلَيْهِ

فبـ . بيت وأرسلت شيعته مرتفع . وشحيرها المكر ، وصححها  
عن . ثم عصت على وصيها ، لها بيت عينا وهي تقول :  
لأعصت وأحمدك معاً . أعصت لأى أحد . وأحمدك لأى أود  
لو تكون مكرتك وأطعم بالاضاء على . حبلى هذا البيت من نعم .

وتنا أسمع منها وأسمع لها وأرقبها . فلا شيء أبهى قد دبرت لهذا اليوم  
تدبراً . وأعددت له إعداداً . وشترته بغير . وانتظرت مقدمه وثقة

بأنه سيقدم ، مطمئنة إلى أنه سيحين . ولم أظهرها على هذا كله ، وأمرى كله في حاجة إلى الحزم وفي حاجة إلى المكر والكبد .

نعم ! لم أنبأها من هذا كله بشيء ، ولم أنبأها حين أصبحت باني لم ادق اليوم لحظة في هذه الليلة الطويلة التي فرقت بين نفسيين ، وإنما قضيت الليل كله بقطعة ، أفكر في أمس البعيد وأفكر في اليوم ، وأفكر في غد وفيما بعد غد ، على حين كانت تعلم بما ناعت وما ستيع من حب ، وبما أحدثت وما ستأخذ من أجر ، وبما دأقت وما بقي لها أن تذوق من مهر ، وعلى حين كانت أحلامها هذه المختلفة تدعو جسمها إلى أن يأتى حركات مختلفة ثلاثتها ، وتدعو لسانها إلى أن ينطق بجمل متقطعة مختلفة توافقها . وكنت أرى ذلك منها وأسمعه ، فأرئى لها وأرئى لنفسى أيضاً : أرئى كما في حياتها هذه الصغيرة الحفيرة التي خلعت من كل حس دقيق ، أو شعور عفيف ، أو تفكير عميق . وأرئى لنفسى من حياتي هذه المضطربة التي يملؤها الحس والشعور والتفكير ، وتفعمها الأحداث والخطوب .

نعم ! قضيت الليل كله مؤرقة . وليس من شك في أنه كان طويلاً ، وليس من شك في أنه كان ثقيلاً لو فرغت له ، ولكنني شغلت عن الليل ببنات الليل . شغلت عن طول الليل ونقله بصورتك أيتها الأخت العزيزة البائسة هذه التي لم تكذ تحس أني خلوت إلى نفسي حتى ترامت لي ، ثم دنت إلى ثم استقرت مني غير بعيد ، ثم أخفت تحدث إلى نفسي حديثاً أعقله ولا أسمعه ، وأحد له في قلبي وقهاً لا ذعاً حلواً معاً . صورتك هذه التي رأيتها كما كنت أراها حين ذهبنا إلى القرب ، وكما كنت أراها في بيت العمدة قائمة تحت السماء ذاهلة لا تحس شيئاً ولا تلذت

إلى شيء . وكما كنت أراها حين كنت أسهك إلى نفسك وإلى مكاني منك . وحين كنت أتحدث إليك وأستمع لك . وحين كنت أواسيك وأعزبك وأحشد في أن أفيض عليك السكينة وأشيع في قلبك الأمن والهدوء ها أنت دى تسعين إلى وتحلسين إلى حاسي ، وهذا رأسك قد مال حتى استقر على كفى ، وهذه يدي تلاطف حذك وتبيلها دموعك المبهمة الصامته . وها أنا ذى أحلى يبك وبين البكاء حياً وأمضى معك فيه ، ثم أثوب إلى الهدوء وأردك إليه . وهذه يدي تلاطف شعرك العزيز ملاطمة متصلة حتى يمسكك الأمر ويوشك اليوم أن يهجم عليك دراعيه . ولكك نهضين ونذهبين . ثم تعودين لي بعد قليل واحدة ثم مروعة ، وأنا أستقبلك رفيقة بك مهلة لك . وهذه الأشباح الحمراء تراءى لنا كما كانت تراءى لنا في بيت العمدة قل أن تأخذ في هذا السفر الأثيم ، ولكك لا تكادين تزين هذه الأشباح الحمراء حتى تهيى وتنهض إليها ، وتستحيل إلى شبح أحمر بين هذه الأشباح الحمراء ! وها أنت أولاء تظفن بي وتصطرن من حولي وتستقر إلى أدنى تردد أن تلقين فيهما ألوان الحديث . وها أنا دى مروعة مفاجئة ، أرى الحس وأشفق منه وأهم أن أصبح ، وأذكر مكاني في دارنا تلك في أقصى الريف نحو الغرب أثناء العسة . وها أنا ذى أرى يسوع الكريه يتصحر منه ذلك الدم العزيز . وها أنا دى أنهض حائمة موهمة ، أريد أن أفر من هذه الغرفة ، ولكن إلى أين ؟ !

نعم ! إلى أين والليل ساكن حاتم ؟ وأين نستطيع فتاة مثل أن تذهب والليل ساكن جاثم ؟ لأوقظ هذه المرأة التي تحتلف عليها الأحلام وتنعم بلدة اليوم في ناحية من نواحي هذه العرفة . لأوقظها ولأفصين





ثم يقبل آخر الليل ولم يكن يقدر أني سألقاه قائمة بالساعة . أقبل إلى في  
 ظلمة الليل يسمى كأنه الحية أو كأنه اللص . ولكنه لم يكذب يبلغ باب  
 الغرفة ويتبين شخصي مائلا في وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها  
 ابتسامة الأشباح ، حتى أخذته شيء من الدهر ، فراجع خطوات ثم  
 قال في صوت أبيض حمل بأحد لونه الطبيعي قبلا قليلا : سنا ؟  
 ألا تزالين ساهرة إلى الآن ؟ أنعلمين أين أنت من الليل ؟ قلت : لقد  
 حاولت نلثيه . وما كان ينبغي لي أن أنام قس أن ينام سيدي ، ما  
 يلزمني ! لعله يحتاج إلى شيء .

قال وقد عاد إليه ثنائه وهلهو نفسه . واسترد صوته شيئا من قوته  
 المألوفة ودعائه لبعضه . ما رأيت قبلك حادما مثلك تحسن العناية  
 بسيدها وتسهر منتصرة لمقدمه إلى آخر الليل . لقد كنت أحسبك نائمة  
 كما تعودت أن أرى من سقك في خدمتي . وكنت أقدر أني سأجد في  
 إيقاظك بعض الجهد ، فليست أدري ما بال نوم الخدم يتقل حتى كأنهم  
 أموات ! قلت . فقد أرحت سيدي من هذا الجهد ، وانتظرت مقدمه  
 كما تعودت منذ اصطفت حذمة المرفين الدين لا يحبون إمداد الليل في  
 دورهم ، فلبأمر سيدي بما يريد . قال وهو بصححك ضحكاً سنجماً وقد  
 مد إلى يداً وددت لو استطعت قطعها ، ولكن تراجعحت حتى لا تلعني

فإن سيدك يأمرك أن تنجيه . ثم انحدرو إلى عرفته ومضيت في أثره .  
 وصدق المسكين أني كنت أنتظره . ولو قد تعد إلى قلبي واستمع لي  
 أحاديث نفسي لعرف أني لم أكن أرقه في انتظاره ، وإنما كنت أسامر  
 أشباحاً حراء لو رآها ملئ قلبي رعباً ولولئ منها فراراً . ولكن لم ير إلا إياي ،  
 ولم يفكر إلا في ، وما له وللأشباح الحمراء !

وعدت إلى عرقي بعد ساعة ، راضية عن نفسي كل الرضا ،  
 مطمئنة إلى قوتي كل الاطمئنان ، فقد بلوت الحصم ولقيت العدو في  
 ميدانه الذي اختاره هو ، وكانت بيني وبينه مقدمات الصال . فلم  
 أضعف له ، ولم أشفق منه ، وإنما ثبت له ثباتاً ، ثم انصرفت عنه  
 وقد علقته بين السخط والرضا ، ووقته بين اليأس والأمل . لم أحد في  
 شيء من هذا كبير مشقة ، ولم أحتمل في شيء من هذا عظيم عاء ،  
 وإنما هو الابتسام المطمح المفري ، والأحتشام الذي يقل العرم ويثبط  
 الحزم ، ويسيطر سلطان الحياة على العس فإذا هي ترند بعد امتدادها ،  
 وعلى الوجه فإذا هو يظلم بعد إشرافه .

وقد كنت أقدر أن المعركة الأولى ستكون عيبة يملؤها الهول ،  
 ويحدث بها الخطر ، وتنهي إلى الفصل فيما يكون بيني وبين هذا الشاب  
 إما ضعف واستئثار ، وإما قوة وانتصار ، بشعبي الطرد العيف من  
 هذه الدار . ولكني ملكت أمرى وملك هو من أمر نفسه ما جعل المعركة  
 الأولى مقدمة لا حاتمة ، وما أحل الفصل في هذه الحصومة إلى أحل  
 طيه قريباً ورأيت بهيئاً . وقد انصرفت عنه بعد أن أعتته على بعض أمره  
 وهيأت له ما يحتاج إليه ، وتركته كاسف الدال بصهر الرضا والابتهاج ،  
 وهو يقول . لا بأس ! إنك في حاجة إلى التربية والتفري .

ولم أكد أثوب إلى عرقي وأعلق بها من دون إعلاقاً محكماً حتى  
 تراءت لي أختي وهذه الظلال التي ترفقها . كأنك كن ستعزني ليعلمن  
 علمي وليسمعن نأ ما أليت مع الخضم من بلاء . وقد هممت أن

أتحدث إليهن ، وأنص عليهن ما سمعت وما رأيت ، وما عملت وما أيت .  
ولكن ماذا ؟ ليس ينظرن إلى نظراً قصيراً ، ثم يلعبن في وجوههن الشاحنة  
ابتهامة الرضا ، ثم يستحيين استخفاء كأنما ابتلعهن الظلام ابتلاعاً .  
وكنت أظن أني سأنتظر معهن مطلع الفجر ، صامرة كما كنت أثمر  
منذ حين قل أن برق إلى سيدي كأنه اللص ، ولكنني ألتصم من  
حول فلا أرى لهم محصراً ولا مظهراً ، وألتصم في نفسي فلا أظفر  
مهن شيئاً . لقد غبن عن عيني وغبن عن نفسي ، وكأنهن أمرن  
الذكرى أن تنسهن ونمسي إلى حيث مضين . فإنا أريد أن أذكر  
فلا أستطيع ، وأريد أن أذكر فلا أحد سيلا إلى الصكبر ، وأنا آوى  
إلى مصحبي وقد كنت أزمعت ألا آوى إليه . ولكن القوة الدنية حدة ،  
ولكن اللب سطناً هو بامسطه ، وغاية هو بالعبا . ولقد قضيت ليلة  
لم أدق فيها النوم ، وهذه الليلة الثابتة قد انقصي أكثرها ، وكادت نوالى  
نجمها تنمور ، فلا بد إذن من بعض الراحة سواء أرضيت أم كرهت . . .

ومن أجل هذا هارقتني أينما ألححت العزيرة ، وهارقتني معك هذه  
الطلال الحمراء إنك لرفيقات في شقيقات على . وما بممكن من  
دنت وأنا عندما تُردن ، لم أهي ولم أصعب ولم أنهم لهذا العدو  
الماكر القوي ! ليت شمري ! أكتنن ترهقني ، ونشقق على ،  
وتنصرف عني وتحيين بي وبين النوم ، لو أني خالفت عن أمركي  
واستحييت أو أصهرت الاستحانة لملك الدعاء الغيظ الذي كان يرسله  
إلى سيدي بالعين واليد واللسان ؟

على أن الأمر بين سيدي وبينى لم يلبث أن تعسر بعد بسر ،  
وتعقد بعد سهولة ، واشتد بعد لين . فلكل شيء أحسن ، وبصير أمد  
ينتهي إليه . ولمطاوله عاياه تقف عدها ، ونيسرة حبر لا أن تستحيل  
إلى ضعف وإدعان . وما ينعي لسيدي أن يصهر مصهر الضعيف  
المدعس لحادم مثلي ليس هو حول ولا طول . وهي لا تدرى ركن  
شدبد ، ولا تعتر بقوة تحميم من بأس وتعمسها من سلف ، وإدع  
هي كلمة منه تغيا في دارة عريضة مكررة أو تخرجها من هذه الدار  
دليله مشردة . وقد علق سيدي هذه الكلمة في حرفة شدة أبيه وأبيه .  
يهم بأن يرسلها حتى إذا بلغت شفتيه وكادت تتحاررهم إن هو استى  
بمحسها إلى ردت إلى مكانها واستقرت في موضعها من طرف اللسان  
استقراراً وأطلقت شدة من حوتها إطباقاً .

ومدت لي أسباب الفء في هذه الدار يوماً أو بعض يوم ريثما  
يخرج سيدي لبعض شأه ، ثم يعود فيدعوني إلى ما كان يدعوني إليه  
في هذا الإلحاح المتصل ، المصحك المحزن ، الذي يقصد على الرجل  
أمره ويظهره قوباً كأنه الليث وضعيفاً كأنه الفأر . عريراً كأنه السيد  
ودليلاً كأنه العبد ، وبطلق لسانه بما شاء له الهديان من هذه الكلمات  
الجوفاء التي يملؤها الاستعطاف حين تكون بديراً ووعيداً . وبماؤها  
المكر والكيد حين تكون استعطافاً واسترضاء ، ونصور دائماً تقيض  
معانيها الباطنة ، وتعبر دائماً عما لم يرد صاحبها إليه ، ويملاً بطرائه هذا  
الشرر المهرق حباً ، ثم هذا الانكسار الدليل حباً آخر ، وبمعله بدور  
حول غايته التي يشتهيها وأمنته التي ينميها ، كما يدور العائد حول



الصنم ، وكما يدور اللص حول البيت يتمي ثغرة ينزل منها إليه !  
 نعم ! كذلك كنت ألقى صيدى مع الصبح باسمة مشرقة الوجه ،  
 أحل إليه قدح اشاي وبعض اعاكهة قبل أن يثب من سريره . وقد  
 كان صيدى يحيا حياة الإنحيز ، فلا أكاد أدخل عليه حتى ترتفع إلى  
 عيناه وقد ملأتهما عواطف شديدة الاختلاف ، ومعان عظيمة التناقض ،  
 فيها الحب وفيها النعص ، فيها الأمل وفيها اليأس ، فيها الوجد وفيها  
 الحوف ، فيها الشهوة وفيها الزهد ، فيها القرب وفيها البعد . وأنا أرى  
 هذا وأحسه وأهمه ، ولكن ، يا لقوة النساء ! إلى لأقبل عليه بالاشاي  
 والعاكهة واتحيه كأنى لا أرى شيئا ، ولا أحس شيئا ، ولا أهم شيئا ،  
 ثم أنصرف عنه وفي نفسي ما فيها من الرضا ، وفي قلبي ما فيه من الإشتاق ؛  
 فقد كنت راضية عن نفسي وساحطة عليها ، وقد كنت شامنة في  
 صيدى ومشفقة عليه ، وقد كنت أرمى نفسي ما أنا فيه من الإطماع  
 والامتناع ، ومن القرب والبعد ، لأعذب هذا الشاب الذى قتل أختي .  
 وكنت أنكر على نفسي هذا كله ، وأراه لعنا بالنار ، ونكلنا للشر ،  
 وإماننا في الإثم . وقد كنت أرى أنى قد حلفت لنفسي حوا من الرذيلة  
 أعيش فيه إذا أصبحت ، وأعيش فيه إذا أميت ، وأنفس هواءه  
 المنكر ، وأبعث فيه ممتا رعاما . فما هذا الكيد الذى أكبده ؟ وما هذا  
 المنكر الذى أمكره ؟ وما هذا التعكير الآثم الذى أملا به رأسى وقاى ؟ !  
 أصبح فأفكر في هذا الشاب لأعويه وأصبه وأنعص عليه يومه ، وأمسى  
 فأفكر في هذا الشاب لأدبه وأفصيه وأؤرق عليه ليله ، وأنا فيما بين  
 ذلك لا أنسى فكر فيه ، عاصنة مرة ، وصادفة مرة أخرى ، لينة  
 حيناً وقاسية حيناً آخر .

هذا كثير ! وأكثر منه أن نمرع له فتاة كادت تستطيع أن نمرع  
 لما هو أظهر منه وأبقى ، وأكثر من هذا وذلك أن يستسلم هذا الشاب

لما بعمره من ضعف . ويتورط فيما يث حوله من شاك . ويتعلق  
 بفتاة مهما نكر هو ليست شيئاً . وأحببت غيرها كثير يستطيع  
 أن يتمسك منى شاء وكيف شاء . وثى شيء أسير من أن يرسل  
 ستاره إلى دونه أو إلى امرأة أخرى من أشبه زبونة . فلا يتقصى  
 اليوم حتى تكون عنده فتاة أو فتيات يحتر من يمين من يشاء ! في  
 كثر هؤلاء الفتيات اللاتي يتمسك العمل في المدرسة قد بشأن فيها أو  
 يتحدثون إليها من الريف كذا الحديث يا مد أعوم ، ولكن نفس الإنسان  
 ضعيفة حقاً ، وفوية حقاً . لقد فقت على نفس صيدى كذا فقت  
 على عبرى تنمى عندي الحب ولداته وآثمه . فلما وجدت منى امتناعاً  
 عبه وصدوداً عنه وصوراً مدحاً منه . أعرضت عن الحب ولداته وآثمه ،  
 أو أرحأت حب ولدته وآثمه وتعلقت بى أنا ، تريد أن تقهرنى وتغشى  
 على أمرى وتتصر على ، وتظفر منى بما تريد .

صيدى لا يصيب عندي الآن حب ولا لذة ولا إثم ، وإنما يطلب  
 إلى حصوناً وهدناً وسلاماً . هو يريد أن يتنصر لا أن يتم .  
 ومن يدري ! لعله ، بما يؤخر إقصائى عن دره حتى يتم له النصر .  
 وتحقق له الفوز . فيجرى دليبة صاعرة قد آمنت له وأدعت  
 لسلطانه ! ويكنى أن يحضر لى هذا الحادى وإذا أنا مثله متعلقة بالعباد ،  
 ملحة في الخصام ، قد سبت الانقام أو كذب أساء . وأعرضت  
 عن أحنى وصلات الخمر أو كذب عرص عهن . ولم أتمل إلا سدوا  
 يريد أن يقهرنى ، ولابد من أن تقهره ، وسيداً يريد أن يسطر سلطانه  
 على ، ولابد أن أبسط سلطاني عليه .

وكذلك اتصلت حياتى في هذه الدار هادئة في ظاهى الأمر  
 مصفرة أشد لأصعاب وأعصمه كثر في حقيقه الأمر . أتى صيدى  
 باسمة ويبقى ساجداً . ثم لا يتصل اللعاب بينى حتى يسبحيل الانشام

لذ عبوس ، والرمد في مخط . وإذا هو يدعو قائل . ويلج في الدعاء  
فألق في الإباء ، ويرى فأرتفع عن الإغراء ، وينزل فأستخف بالسدير ،  
ويستطف فأقو على الاستعطاف .

ثم - يا للهول ! ماذا أرى ؟ وماذا أسمع ؟ وماذا أجد ؟ هذا مبدى  
مائل بين يدي يتلعف ويتفرق ثم يستعطف ويستجلى ، ثم هذا هو  
جائياً بين يدي كأنه يتقدم إلى الصلاة ، ثم هذا هو باكياً في صمت ،  
ثم هذا هو محبباً ، سكاه ، وما أن دى أكاد أضعف وبكاد يأخذني  
الإشفاق لولا أن أجمع قوتي كلها ونفسي كلها وأدعو إلى أخوتي وطلابها  
الحمراء الخمس منهن : عون ، وأستمد من قوة إلى قوة .

وأضئ من ذلك فيما كنت في الإباء ، ثم ينشئ الأمر يسا  
إلى شيء . يشد البرعة ، وإذا أنا قد أحضرت له ولعبي . وإذا  
هو قد أحضرت في دمه ، وإذا نحن نتحدث في هدوء وأمن واستقرار .  
فلما هو هذا السبب اليأس وعجز عن احتمال . وأما أن فأهمل عليه  
الأمر محضه مرارة . وأزين له الانصراف عنى إلى من أحب وما أحب  
من الخليلات والدم والدماء ، وإذا نحن نتفق على أن نفرق ،  
وإذا هو ينصرف عنى على ألا يراى في الدار إذا عاد إليها . وأنا أقل  
ذلك راضية عنه سعيدة به ، فقد شئت هذه الحرب وضعت عن  
هذه الخصومة ، وكرهت هذه الحياة التي تملؤها المطاولة والمحاولة ،  
وتثقلها المهاجمة والمقاومة ، وفنعت من العنينة بالإياب أو بشيء . حبر  
من الإياب . فسأخرج من الدار طائفة بعض الشيء . أليس قد عجز  
هذا الشاب الخليل الوهم المتدرف المعنى القوي أن يبلغ منى ما بلغ  
من أمثالي ؟ أولست أخرج من هذه الدار وقد جرعت مرارة الهزيمة  
وعلمته أن من فتيات الريف الساذجات الغافلات من يستطعن الثبات  
لأمثاله والامتناع على أصحاب الذكاء والجمال والتدرف والحناء والبراء ؟

ولقد انصرف عنى هادئاً وقد أظهر الرضا ، وفرغت لأمرى آمناً للرجل  
مرمعة ألا أرى زئومة ولا ألقاها هذه المرة ولا أقيم في المدينة ولا أعود إلى  
أقصى الريف ، وإنما آخذ قصاراً من هذه القطارات التي تمضي إلى  
الشمال نحو القاهرة ، أو إلى الجنوب نحو عاصمة الإقليم ، فأرض  
الله واسعة ورزق الله ميسر من تنعاه . وما أنا دى قد حزمت أمرى  
وحملت متاعى الخفيف وصممت أن أخرج . ولكن البستاني موكل  
بالدار بمعنى أن أخرج منها ويحول بيني وبين الباب ، وينبئني بأن سيده  
ألقى إليه أثناء انصرافه أمراً حارماً صارماً أن يحول بيني وبين الطريق ،  
وأن بتكلف ما يستطيع وما لا يستطيع ليحسكني في الدار حتى يعود .  
وإذا علم يكن حادثاً حين اتفق معى على أن نفرق . وإذا علم يكن حادثاً  
حين أظهر الهدوء ولا راضياً حين تكلف الرضا ، وإنما كان ماكرأ  
مخادعاً . ومن يدري ! لعله كان صادق العزم خالص الرأي ، فلما  
انصرف عنى تمثل الهزيمة وتمثل آثارها وأعقابها فأبت عليه نفسه أن  
يرسل هذه الفتاة ولا يخضعها لما أراد .

وقد استيأست أو كدت أستبئس من ذلك الخاطر الذي كان  
يعينى أول الأمر على المقاومة أو يعربنى بها أو يدفعنى إلى الإغراء  
والإطماع ثم إلى الإباء والامتناع . فقد كنت أعتقد أن لهذا الشاب  
في أربأ . إنه يشئني كما اشتئى عبرى من الفتيات ، وإن امتاعنى  
عليه قد راده حرصاً على وتعلقاً بي . ولست أكلد نفسي فكثيراً  
ما سألتها . أنرى شهوته قد استحال إن حب ؟ أما الآن فأنا مستيقنة  
أنه لا يحبني ، بل لم يحبني قط ، وأنه لا يشئني ، ولعله يريدني ،  
وإنما يريد أن يقهر في عموماً متمرداً وحصياً عبداً ، فلا يقين الأس  
بالأس ، ولا يقين العناد بالعناد .

وما كان أيسر الحرب لو أنى رعت في الحرب أو فكرت فيه ،

لكني كنت أريد أن أترك الدار جبهة لا سرّاً ، وعلى علم منه لا على جهل . ومن يندري ! لعل لم أكن أحب أن أترك الدار ، وإن كان هذا الحاضر لم يمرض لي ظاهراً جلياً . وهو يعود مع المساء ، وما أكثر ما يعود الآن مع المساء ، وينفق ليله كله في الدار لا يجر ولا يلقى أصحابه . ومن يندري ! بم كان أصحابه يعللون انقطاعه عن السمر وإثارة للمرلة . ولكنه يعود اليوم إلى الدار هادئاً ظاهر الرضا ، ويلقاني كما انصرف غنى مبسماً في كآبة ، وهو يسألني : أما تزالين هنا وقد فارقتك حل ألا ألقاك إذا عدت ؟ !

- أجل ! فارتقي على ألا تلقائي ، ولكنك أمرت خادمك ألا يغفل بيني وبين الطريق .

- ومن زعم بك هذا ؟ لقد كذبت الخادم ، وما أرى إلا أنه خريص على بغائك ، كاره لمرافقتي . ومن يندري ! لعلك أنت لا تكرهين البقاء معه والاتصال به فهو الذي سماك لي ، وهو الذي أسأني بمكالمك ، وهو الذي جاء بك إلى هذه الدار . إن إدراكاً لحقي ، لقد خدعني هذا البستاني ، ولقا انحد داري مسرحاً للهدوء وهواه . فأت إدراكاً لا تعرضين عني ولا تمنعين عني إثارة للشرف واستنقاء للعفاف ، فقد ذهب الشرف من بعيد وصاع العفاف منذ أقبلت أو قبل أن تغفل على هذه الدار . وفي سبيل من ذهب الشرف ؟ وفي سبيل من صاع العفاف ؟ في سبيل هذا البستاني الذي تهوينه ، وما أشق في أنه يهواك

وكان هادئاً مطمئناً حين بدأ هذا الحديث ، حتى لم أكن أشك أنه كان صادقاً . كنتأ بتمسك الوصية إلى استنشاف ما يبسا من الخصام . ولكنه لم يكن بمصطفى في حديثه حتى أحد هلوؤه بمعارفه شيئاً شيئاً . ولم يكن ينهي إلى عاقبته حتى كان غصاً كنه . وشراً مستطيراً يتمثل بإنساناً يتكلم ويتحرك ، ذاهلاً جانياً متيناً لبطش لا يكاد يمنع عنه

إلا في جهد شديد .

على أنني لقيت عنقه هذا وسخطه كما تعودت أن ألقى كل ما قدم إلى من ألوان لعنف واللين ، ومن ضروب السخط والرض ، ثالثة مطبقة . وقتت له في هنيهة لا بأس عليك ! خلت بيني وبين الطريق ، ثم تبين بعد ذلك أني معني بالبستاني حاضرة ، أو يصلي به ليلة من حليت بيني وبين الطريق لأحمد أول قطار . وإلا أن أشق على مولاي وأكرمته مالا يتكف السادة المحلم لعرضت عليه أن يصحبني في قطار أو يرسلني إلى أي مدينة شاء . فإن لا أدعي إلا أن أعيش ، في حيث آمن على شرف هذا الذي لم يذهب ، ومن عاقبي ما لدى لم يضع وإن ظن سيدي في الطنون .

دل في عبط يشه الرصد في محمية شبه الجدة . ما رأيك في كورين السادة وخادم ؟ فقد عصمت مد حين أن ليس بيننا سيادة ولا حكمة ، وإنما بيننا ما هو شر من ذلك وأبعد أثراً .

قلت . وما ذاك ؟ قال : هو هذا . . . ثم اندفع إلى هاجماً كأنه أثبت يريد أن يزدرد مريسته ازبداداً ، ولكن المراه لا تطلب إلا إذا أحت . ولا تقهر إلا إذا أرادت ، ولا تفسد إلا إذا رعت في الإدمان . ومن أجل ذلك ارتدت عني كما هجم على ، واستوفت الخصام بيها كما كان من قبل عيباً لبياً ، وعلتوباً مستقيماً ، وفيه ما فيه من هذه الأتوب التي بعد حياة العاشقين وتربيتها في وقت واحد .

وتتصل الحياة على هذا النحو ، لا أجد لنفسي منها مخرجاً ولا يجد لنفسه منها مخرجاً ، وإنما دُفع كل منا إلى صاحبه دفعا ، ورداً كل واحد ما عن صاحبه ردّاً ، لا يستطيع أن يخرجني من داره ، ولو قد أراد ذلك لكرهت أن أخرج من هذه الدار ، ولا أستطيع أن أطارقه جبهة ولا خفية ، ولو قد فعلت لطلبتني حيث أكون من الأرض .



فليس عدلى شك الآن في أن سبدي لا يشئى ولا يتنى أن يظهر على ويستمر على خصم عبيد ، وإنما هو الحب ، هو الحب الذى يطعم في كل شيء ويرضى بأهل شيء ، بل يرضى بلا شيء ، بل هو سعيد كل السعادة ما وثق بأن يتأ واحداً بحويه مع من يحب ويهوى . هو الحب ما في ذلك شك ، لكن الشك المؤلم المصى إنما يتصل بهذا القلب الذى يضطرب بين جنى أنا ، فما خطه ؟ أمعن هو كما كان مبعضاً من قل ؟ أراعى هو في الانتقام كما كان راعياً من قل ؟ أحافظ هو لعهد هذه الأخت التى صرعت في ذلك الفضاء المريض ، ولعهد الأشباح الحمراء التى تقيم معها على هذا اليسوع الأحمر ، والتى قد طال مقامها معها حول هذا اليسوع ، وانقطعت ريارتها لهذه الدار فلم تلم بها منذ حين ؟

نعم ! الشك في هذا القلب الذى يضطرب بين جنى بعد أن استيقن أن هذا الشاب يحبى ولا يستطيع عنى ملوا . ما خطب هذا القلب ؟ أم هو أم غير مكثرت ؟ فإن تكن الأولى فهم المقاومة ، وفيهم العذاب ، وفيهم تعذيب الحب ؟ وإن تكن الثانية فهم البقاء في هذه الدار ، وفيهم الصبر على هذه الحياة التى لا تطاق ؟

كلا ! كلا ! فكرى يا آمنة . ماذا أقول ؟ فكرى يا سعاد . . .  
فقد عى اسم آمنة منذ دخلت هذه الدار .

فكرى يا سعاد . فقد آن لك أن تفكرى ، واعزى أمرك فقد آن لك أن ترميه ، أقيمى كما تقيم العاشقة أو ارتحلى كما ترتحل القالية ، فأما هذه الحياة المسقة فليس لأحد فيها خير وليس لأحد فيها عاء ، ولم يبق لك إلى احتمالها سبيل !

ودد ذكرت سعاد ، وما كنت في حاجة إلى مذكر بعد الملامى قلباً وتعذب هذه الحياة التى تحبها امتلاء ، راحاً بها مرحاً ، حتى أصبحت حزناً مهما أو أصبحت جراًيم مبهمة حتى أصبح من أعسر الأشياء وأشقها أن تفكر الفتاة في هذه الحياة تفكراً هادئاً محمداً لا يباثر هذه العواطف العنيفة الحادة التى تتصور مرة كأنها العور الذى لا يعور بعده ، وتتصور مرة أخرى كأنها الإقبال الذى لا إقبال بعده ، وهى في الحالى شيء واحد تختلف عليه الصور والأشكال دون أن يتغير جوهره الذى هو الحب .

نعم ! لقد أصبحت سعاد عاجزة كل العجز عن أن تحلو إلى صبا ساعة من سهار أو ساعة من ليل ، بل أصبحت عاجزة كل العجز عن أن تحلو إلى صبا في بقعة أو يوم ، إنما هى مستصعبة هذا الشاب إن حصر ، ومستصعبة هذا الشاب إن عاب . لا تهم بالخلوة إلى صبرها حتى تعد صورته ماثلة فيه ، ولا تمد عينا إلا رأت شخصه ، ولا تمد أذنها إلا سمعت صوته . قد أخذ الحياة عليها من جميع أقطارها ، وقد داد عنها كل شيء وكل إنسان ، وداد عنها حتى أحبها تلك العزيرة وأشباحها تلك الحمراء . وانتهى الأمر بها كما انتهى الأمر بهذا الشاب نفسه إلى علة تشبه الجنون . لقد صرفت إليه عن كل شيء ، وصرفت إليها عن كل شيء .

ولم يبق بين هذين الخصمين المتعدين صراع أو تفكير في الصراع ، وإنما هو الإدعان للذى لا ثورة بعده والامتسلام الذى لا رجوع فيه . ولكن الكبرياء ما زالت ميطرة على سعاد ، تصارع الحب فيها

تصرعه ، وتغالب العشق فيها فتعلمه ، وما أكثر ما سمعت الفتاة  
إلى الاستسلام ، حتى إذا تكادت تنهى منه إلى عيبه . وحتى إذا  
بلغت حافة الحوة وكادت تتردى فيها تمثلت لها الكبرياء قوية عيجه .  
ونصبت أمام عينيها مرآة تنظر فيها فتري صورة آمة الأبية عريضة .  
وترى صورة سعاد الضعيفة المهالكة ، فتند وراءها حظوة أو حظوات .  
وتوحد الإذعان والإلقاء باليد إلى أجل يقصر أو يطول .  
وقد تغيرت سيرة سيدى أيضاً ؛ فهو يحب يلنى من الحب عاء  
وبلاء ، ويحد من آلامه مثل ما أجده . ولكن كبرياءه قد ردت إليه هو  
أبصاراً فأصبح يتمنى في غير إلحاح ، ويأمل في غير إلحاف ، كأما  
أحسن في حبه شيئاً من حياء فآثر القصد والاعتدال ، وكأما أحسن  
الإخفاق المتصل فآثر الحرمان في شيء من العرة على ذلك الإلحاح  
الذى لم يكن يعقبه إلا هزيمة وخطلان .

ولكنه يقبل على ذات مساء وعلى وجهه ابتسامة فيها شيء من الرضا .  
وفيها كثير من الحزن ، وفيها شك يتردد بين الرضا والحر . يقبل على  
ذات مساء لا نائراً ولا مستسلماً ، ويقول لى في صوت لا حدة فيه . لقد  
آن لك أن تسريجى ، وآن لى أن أستريح ! فأطرق إليه نظرة التى لم  
تعمهم عنه التى تعودت أن تسمع كثيراً فتعمهم أو لا تعمهم دون أن تحمل  
بما يستقر في نفسها أو يعزب عنها مما تسمع ، ولكنه يعبد على حديثه  
فأسأله عما يريد ، فيقول : ستغرق لآنى نقلت إلى القاهرة .

وتفزع من نفسى هذه الجملة موقع الصاعقة ، وإذا أنا داهلة  
لا أجيب ولا أتكلف حتى إحصاء الدهول ، وإذا أنا أحد شيئاً من  
الدوار يكاد يبلغ لى الإغماء لولا أن أتمالك ، وإذا دموع تنهمر في  
صمت متصل . وإذا الفتى يبدو منى فلا أرتد عنه ، وإذا هو يصح  
يديه على كفى فلا أمتنع عليه ، وإما أنا معرقة في لصمت ودموعى

ماصية في الإهمار ، والننى قائم بمكانه منى في هلهو لم أعهد ، ينظر  
إلى صامتاً دهشاً ، ثم بنأى عنى قليلاً وهو يقول في صوت شاحب :  
ماذا أرى ! إنك لتكرهين فراقى حقاً !

ثم يعود إلى صمت ، وأمضى أنا في صمتى ، ونمضى دموعى  
في الإهمار . وما أدرى أطال بيننا هذا الموقف أم قصر ، ولكنى أسمع  
يدعونى في صوت قد فارقه شحوبه وعاد ممطاً مشرقاً كما عرفته ،  
وأرفع رأسى وأحاول النظر إليه من وراء هذه الدموع المنسكبة فأرى  
وجهاً مشرقاً أشد الإشراف قد امتصرت فيه أمارات الحزم والهلو ،  
وإذا هو يقول لى : أما والأمر يتنا على ما أرى فلن تفرق . مستصحبينى  
إلى القاهرة ، ولن يتالك منى إلا ما تحين . فلم فامضى في شؤونك  
كما تعودت أن تفعل ، هيق من أمرى السفر ، فلن تقيم هنا  
إلا أياماً .

ثم ينصرف منى كما أقبل على هادئاً وزين الخطا . وقد أنكرت من  
نفسى كل شيء ، وأهم أن ألوم نفسى على هذا الضعف الذى لم  
أستطع إحصاءه ، ولكنى لا أجده من نفسى قوة على اللوم ، وإذا أنا  
راسية عن هذه الحال الجديدة رضى عميقاً قد مازج نفسى وانخطط  
بدي ، ولكنه في الوقت نفسه رضى حزين ليس فيه ابتهاج ظاهر ، وإنما  
هى حياة الخادم التى اطمانت إلى ما يلم بها من الأحداث ، وضمت في  
حياتها لا تنكر شيئاً ولا تعرف شيئاً ، وإنما هى مستلعة تذهب وتجيء ،  
وتأتى من الأمر ما تأتى ، وتدع من الأمر ما تدع ، لأنها لا تستطيع  
أن تفعل غير هذا ولا تريد أن تفعل غير هذا ، ولأنها تجد في هذا  
أنفسى ما كانت تنتظر من السعادة .

والغريب أنه هو أيضاً قد جعل ينظر إلى منذ ذلك الوقت فظرات  
برئت من الطمع والأمل ، وقنعت منى بما يقنع به اليد الننى من الخادم



النقية ، فلا إثم بيتنا ولا تلميح إلى الإثم ولا خوف من التورط فيه ، وإنما هي حياة نقية بريئة قد استوفت بيتنا كأننا لم نلتق قبل ذلك الوقت ، وكأن أحدنا لم يعرف صاحبه قبل تلك الساعة التي ألبأتني فيها أنه قد آن لكليتنا أن يستريح لأنه نقل إلى القاهرة .

وإني لأدعو أني حين أخلو إلى نفسي في النهار وحين أخلو إلى نفسي في الليل فلا تستجيب لي صورتها التي كنت أعرفها في المدينة باسمه مشرق ، ولا تستجيب لي صورتها التي عرفتها في بيت العمدة واجدة هائمة ، ولا تستجيب لي صورتها التي كنت أراها مطرقة إلى ينبوعها الأحمر . تطيف بها ظلالها الحمراء .

لا تستجيب لي صورة من هذه الصور ، وإنما هي ذكرى غامضة حزينة تلذع القلب أحياناً فتتلفع لها بعض الزفرات وقد تهمر لها بعض العبرات ، ثم لا تلبث أن تنجاب كما ينجاب السحاب الرقيق ، وإذا أنا أعود إلى حياتي المصيبة المادئة ، الحزينة في غير تكلف لحزن أو سرور . وأنتقل مع سيدي إلى القاهرة وأقيم معه في دار أبويه موكلة بمخيمته لا أكلف شيئاً غيرها من أعمال الدار ، ولا أجد من أبويه إلا برأ وعظماً ، وإلا رفقاً وحناناً . فأما هو فقد جعل ينظر إلى كلما تقدمت الأيام كما ينظر إلى الصديق لا كما ينظر إلى الخادم ، قد اصطفااني لنفسه ، واختصني بوده ، وجعل يشركني في كثير من أمره .

يا لله ! إني لأحس شهاً بين هذه الحياة التي أحياناها مع هذا الشاب في دار أبويه النخمة بالقاهرة وبين تلك الحياة التي كنت أحياناها مع خديجة في بيت أبويها بمدينة من مدن الأقاليم . لقد عاد الأمر بيني وبين هذا الشاب إلى مثل ما كان بيني وبين خديجة من التقاء والظهر . لم أخلق إلا لأحيا حياة الأصدقاء !

ولكنها صداقة غريبة هذه التي تقوى وتنمو بين هذا الشاب المترف

الغني ، وهذه الخادم البائسة التي طالما طمعت فيها نفسه الطامعة ، وأغرته بها عواطفه الجائعة ، والتي طالما اتخذتها غرضاً لأهوائه الآثمة ، وابغى عندها من اللهو والمجون ما يبتغيه أمثاله من الشباب المترفين عند أمثاله من البائسات الغافلات ، فلما لم يظفر منها بشيء حاصرها كما تحاصر القلعة ، وحاربها كما يحارب العدو ، فلم يستطع أن يقهرها ، ولم يستطع أن يقهره . وأقاما معاً في شيء من المواعدة لا يستطيع عنها سلواً ، ولا يستطيع عنه انصرافاً ، لا يشير إليها من آماله وطماعه بقليل أو كثير ، ولا تلقاه هي من مقاومتها وامتناعها بقليل أو كثير لأنها لم تعد في حاجة إلى المقاومة أو الامتناع .

أأكذب نفسي أم أصدقها ؟ أأصارعها بالحق أم أموه عليها الأمر ؟ لقد رخصت حياتنا الجديدة واطمأن إليها قلبي كل الاطمئنان ، واغبطت بها نفسي أشد الاغبط ، وارتاح إليها ضميري هذا المتعب المذهب الذي كان في حاجة إلى أن يرتاح . ولكن أظن قلبي مطمئناً ونفسي مطمئنة وضميري مرتاحاً بعد أن مضت علينا الأسابيع والشهور في مدينة القاهرة قريبين بعيدين مؤلقين مختلفين ؟ ألم أشعر شعوراً غامضاً بأن هذه الهدنة قد طالت وبأن هذه المواعدة قد اتصلت أكثر مما كان ينبغي أن تتصل ؟ ألم أجد في أعماق ضميري شوقاً إلى تلك الحرب وجنوحاً إلى ذلك الخصام ؟ ألم أحس في دخيلة نفسي أن حياة هذا الشاب قد يكون لوناً من الصدق وأن احتشامه قد يكون فناً من الإعراس ؟ بلى ! وجدت هذا كله وأنكرته من نفسي أشد الإنكار ولها فيه أعنف اللوم ، وما أشك في أنه وجد من نفسه مثل ما كنت أجد ، ولأم نفسه في مثل ما كنت ألوم نفسي فيه .

وقد زاد هذا الحمل ثقلاً على نفسه وعلى نفسي أنه صار منذ انتقل إلى القاهرة سيرته تلك التي ألفها في الأيام الأخيرة من حياته في الأقاليم .



فكان يغدو إلى عمله مصباحاً ويروح إلى دار أبويه حين يتقدم النهار فلا يكاد يخرج منها إلا إذا كان الغد . ومع ذلك فأمثاله من الشباب لا يلبسون بدورهم إلا ليخرجوا منها ، إنما دورهم فتادق يطعمون فيها ويأوون إليها آخر الليل . وفي القاهرة مما يقفن الشباب ويفريهم شيء كثير علماً سمعت أحاديثه قبل أن أبلغ القاهرة وبعد أن أقمت فيها . فما بال هذا الشاب لا تبلغه فتنة ولا يناله إغراء ؟ لقد رضى أبواه أول الأمر عن هذه الحياة المستقيمة كل الرضا ، وابتهاجا بمحضر ابنهما كل الابتهاج ، ولكنهما رجعا آخر الأمر أن الفتى قد أسرف على نفسه في لزوم الدار والعكوف على القراءة والانقطاع عن الأندية وما يكون فيها من لقاء الأصفياء والتعرف إلى الناس . وكثيراً ما رغبته أمه في الخروج فلم يستجب لهذا الرغبة ، وكثيراً ما أغراء أبوه بملاعب التمثيل ومجالس الموسيقى وزيارة هذا البيت أو ذاك من بيوت الأصفياء فلم يستمع لهذا الإغراء ، إنما هو الغدو على العمل والروح إلى الدار ، والأوقات تنفقها مع أبويه ، ثم الانحياز إلى غرفته والانقطاع إلى كعبه يصكف عليها حتى يتقدم الليل .

وكان في أثناء ذلك ربما دعاني إلى غرفته وأخذ يتحدث إلى ويسمع مني ، وكانت المدينة وشؤون أهلها موضوع حديثنا في كثير من الأحيان ، كما كانت القاهرة وشؤونها موضوع حديثنا أحياناً أخرى .

كان يتحدث أو يسمع جالساً إلى مكتبه ، وكنت أتحدث أو أسمع واقفاً غير بعيدة من مكتبه . وما أكثر ما دعاني إلى الجلوس وما أشد ما كنت أعني الجلوس ! ولكنني كنت أعترض باسمه ، فما ينبغي لمثل أن تجلس إلى مثله وإنما حسب مثل من مثله الوقوف بين يديه والتحدث إليه والاستماع له ، وهذا كثير .

لم تكن غريبة هذه الصداقة بيني وبين هذا الشاب على ما كان

بيننا من الاختلاف والاختلاف ؟ أكانت صداقة خالصة أم كان ورامها أكثر من الود الذي يكون بين الأصفياء ؟ أما أنا فقد كنت أجد وراء هذه الصداقة حياً ثائراً أكسبه على ما كان يكلفني كنهانه من الجهد ويحملني من المشقة والعناء . وأما هو فقد كتم أمره أسابيع وشهوراً حتى خلعني أو كاد يخدعني عن نفسه ، ولكنه ألقى الثقاب ذات مساء فقهر من أمرنا كل شيء ، اللقاء في غير جهد وفي غير تكلف ، لم يضطرب له صوته ، ولم يظهر على وجهه أثر العواطف المضطربة أو القلب الذي تضطرم فيه نار الحب . إنما تحدث إلى في هذا الأمر كما كان يتحدث إلى في أمر المدينة وفي أمر القاهرة بصوت لا ارتفاع فيه ولا انخفاض ولا احتجاج فيه ولا التواء !

قال : ألا ترين أن الأمر يتناقد أن له أن ينهي إلى غايته ويبلغ مداه ؟ قلت : وما ذاك ؟ قال : هذا الحب الذي اختصمنا فيه وقتاً طويلاً وسكننا عنه وقتاً طويلاً ، ولكنه لم يسكت عنا ، فما أظنه قد أمهلك يوماً كما أنه لم يمهاني ساعة . أما ينبغي أن تنتهي هذه الحياة الفاضلة إلى ما يجب لها من الصراحة والوضوح ؟ وقد سمعت منه ولكنني لم أرد عليه جواباً .

فلما طال عليه صمتي استأنف حديثه في صوت لا يزال سواء ، فقال : إنك تفهمين مني اليوم ما أريد ، كما فهمت عني من قبل ما كنت أريد . قلت مبتسمة : بل إنني لم أفهم عنك شيئاً . قال ضاحكاً : بل تفهمين أني كنت أريدك على الإنم ، وإلى الآن إنما أريدك على الزواج .

واحتججت إلى أن أعتمد على كرمي كان مني غير بعيد ، فإن فكرة الزواج لم تخطر لي قط ، وما كان ينبغي أن تخطر لي ، فقد أقنعت على كثير من خطير الأمر وتصورت في نفسي كثيراً من جليل



العمل ، ولكنني احتفظت دائماً بعقلي ولم يخرجني الحب كما لم يخرجني  
اليخس ، ولم يخرجني الأمل كما لم يخرجني اليأس ، عن طوري في لحظة من  
اللحظات . لذلك أجبته صادقة بأن هذا أمر لا ينبغي العبث فيه .  
قال وهو يضحك : فإنك تظنين أني أعبت ، وتقلرين ما بينك  
ومني من الفرق الاجتماعي متى تزوج السيد الغني المترف من خادمه  
الشقية الفقيرة البائسة ! أليس هذا هو ما تقلرين ؟ فأرجي نفسك  
إذن من كل هذه الخواطر ، فقد رأيت منذ موقفنا ذاك في المدينة أني  
لست سيدياً كغيري من السادة ، وقد رأيت أنا منذ عرفتك أنك لست  
خادماً كغيرك من الخدم . لقد دهشت حين رأيته تنتظريني إلى آخر  
الليل على غير ما تعودت من الفتيات اللاتي سبقتك إلى خدمتي ،  
ولكني لم أكن أقدر أنك مستيرين في نفسي ألواناً أخرى من الدهش .  
ثم أطرق صامتاً فأطال الإطراق والصمت ، وليت مائلة ذاهلة  
لا أقول شيئاً ، وأكاد لا أعي شيئاً ، ولكنه رفع رأسه ، وقال في صوت  
هادئ حزين : أتقبلين ؟ قلت في صوت ليس أقل من صوته هادئاً  
ولا حزناً : فإن سيدي يعلم أن ليس إلى هذا من سبيل . قال : تفكرين  
في أبي ؟ فإنني قد فكرت فيهما قبلك وقد حزمت أمري ، وما أشك  
في أنهما لن يمتنعا علي ، ولو قد فعلا لعرفت كيف أمتنع عليهما ،  
ولكنهما لن يفعلا ، فهل تقبلين ؟ قلت : ليس إلى ذلك من سبيل .  
قال : فمن حق عليك أن أفهم هذا الامتناع ، إنك لتعلمين أن فراقاً  
بيننا مستحيل ، وإنني لأعلم كما تعلمين أن ليس لقلبي رضا إلا في  
الزواج . قلت : فقد قضى على قلبي ألا يرضيا . قال : ومن ذا الذي  
قضى عليهما هذا العذاب المتصل ؟ وهمت أن أجيب ولكن صوتي  
يحبس ، ودمعي ينطلق ، وإنني لأراني أهم بالانصراف ، وإنني لأراه  
قد نهض من مجلسه متاثلاً وسعى إلى متباطناً حتى ردى في هدوء ودعة ،

ثم عاد إلى مجلسه وقال : أنرى إلى كيف أملك نفسي ! ألا تفكرين  
في تلك الثورة الجامعة التي شقيت بها وقتاً طويلاً .

أنبشني من ذا الذي قضى علينا هذا العذاب المقيم ؟ قلت : أنت  
الذي قضى علينا هذا العذاب المقيم ، وأنا التي قضت علينا هذا  
العذاب المقيم . كلانا قضى على صاحبه ما نحن فيه من شر ونكر ،  
وكلانا أتاح لصاحبه ما نحن فيه من هذه المواقعة المصادفة التي لا ينبغي  
أن نطمح في خير منها فليس في الحياة خير منها بالقياس إليك ولا  
بالقياس إلى . قال : فإن حديثك لم يزد إلا غموضاً . قلت : فخير  
لنا أن نقبله على ما فيه من غموض . قال ، وقد ظهر أنه يبذل جهداً  
ليحفظ بهلوه : فإنني أقسم لك أني لم أعد أستطيع صبراً على هذه  
الحياة . قلت : وأنا أيضاً لا أستطيع صبراً على هذه الحياة ، ولكن  
ما الذي نستطيع أن نفعل وقد سبق القضاء بما لم نحب . قال : أي  
قضاء ؟ ألم يأن لك أن تنصحي ، ألم يأن لي أن أفهم ، ألم يأن لهذه  
الظلمة أن تتجاف ؟ قلت : أحريص أنت على ذلك ؟ إنني لأخشى  
إن انجابت عنا هذه الظلمة وغمرنا الضوء أن يكره كل واحد منا النظر  
في وجه صاحبه . قال ، وقد غلبه العنف ، فارتفع صوته قليلاً واضطربت  
يده اضطراباً خفيفاً : بل أنا أريد أن أفهم مهما تكن العاقبة . قلت :  
فأذن لي إذا بالجلوس ، ولم أنتظر إذنه ، وإنما جلست على هذا الكرسي  
الذي كنت أعتمد عليه ، وألقيت عليه قصتي في صوت هادئ مطرد  
لا يبله السمع ولا يظهر فيه الحزن ، ولا يتم عن قليل أو كثير من الاضطراب  
إنما ألقيت عليه قصتي كأنني أحدث عن شخص غريب إلى شخص  
غريب .

وما أدرى أطلال الوقت الذي ألقيت فيه قصتي أم قصر ، ولكنني  
أعلم أني سمعتني أقول : أفهمت الآن ؟ أنرى إلى هذا الضوء الذي



يغمرنا ؟ أستطيع أن تنظر إلى ١٢ وقد انتظرت جوابه لحظة غير قصيرة ، ولكني سمعته كأنما كان يتحدث إلى من مكان بعيد جداً ، سمعته يقول : نعم ! أستطيع أن أنظر إليك ، ولن أستطيع أن أنظر إلا إليك ، وأنت أنطيقين أن تنظري إلى ؟ أما زلت تضررين الانتقام ؟ ولم أجب إلا بما تجيب به المرأة المغلوبة التي انكسرت نفسها وذاب قلبها ، فهو يسيل من عيناها دموعاً . ثم أستمع بعد وقت لا أدرى أكان طويلاً أم قصيراً يقول لي : لقد كان من الممكن أن نفترق قبل أن يغمرنا هذا الضوء ، فأما الآن فقد أصبح افتراقنا شيئاً لا سبيل إليه . أليس من العجب أن يكون هذا الضوء الذي أخذ يغمرنا شراً من الظلمة التي خرجنا منها ؟ إن أحدهما لن يستطيع أن يهتدي في هذا الضوء إلا إذا قاده صاحبه . إن العبء لأثقل من أن تحمله وحده ، وإن العبء لأثقل من أن أحمله وحدي ، فلنحتمل شقاءنا معاً حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

ثم انقطع الحديث بيننا فلم يقل شيئاً ولم أقل شيئاً ، وأطبق على الغرفة صمت هائل رهيب ! غرقنا فيه بقلبين كما يغرق النائم في نوم برئ من الأحلام .

ولكن صوتك أيها الطائر العزيز يبلغني فينتزعني انتزاعاً من هذا الصمت العميق ، فأثب وجلة مذعورة ، ويثب هو وجلاً مذعوراً ، ثم لا نلبث أن يثوب إلينا الأمن ويرد إلينا الهدوء ، فأما أنا فتنحدر على خدي دمعان حارّتان . وأما هو فيقول وقد اعتمد يديه على المائدة ، دعاء الكروان ! أتريه كان يرجع صوته هذا الرجيع حين صرعت هنادي في ذلك الفضاء العريض ! !

القاهرة ، سبتمبر ١٩٣٤